سلسلة
نصوص ٩٠

(١)

ايام يوسف المنسى

رواية

السيد نجم

ـ مفتتـــح ـ

هــذه النصوص تصدرها مجموعة من الأدبــاء والنقــاد ، بمجهودها الذاتى ، بعــد ان تطــورت رؤاهم عبــر « ورشــة » للقــراءة والنقــد ، إستمرت اعوامــاً من خــلال اللقــاء فى أحــد المقــاهى بوسط القاهــرة ، تولدت عبرها ، نصوص كثــيرة ، واكتسب الجميــع خبــرة عميقة بالواقع الثقــافى المصرى والعربى وتياراته المختلفة ، محاولت أن تنقــل الممارســة الحيــة للابداع ، الى مجــال الكلمــة المكتوبة ، لأن التاريخ الثقــافى لأى أمــة ، واى إتجــاه ، يبدا بمجموعة تتطــور ممارســاتها من القراءة الجــادة والمنظمة لأفــراد المجموعة بعضهم لبعض ، ثم تطــور تجربة الكتابة هــو الذى دفــع افــراد المجمــوعة الى تطــوير مناقشاتهم نحــو إسهامات حقيقية تتمثل فى هــذا الكتــاب الذى نصدره اليــوم . والمجموعة لا تلتف حــول هــدف أيديولوجى ، أو مدرســة فى الأدب واحــدة ، وإنمــا هــم تيارات متعــددة متباينة ، فنجــد ان ملامح القــص عند سعيد عبد الفتــاح تختلف عنها عند ربيــع الصبروت ، ونجــد أن العــالم القصصى عند الســيد نجــم مختلف عن العــالم القصصى عند ســيد الوكيل ، ونجــد ان مصطفى الضبع من جيــل الشباب بينمــا أمين ريــان من جيــل مخضرم عبــر بخبرات ماقبل الثورة المصرية الى الآن ، بل ولا نعدم اختلافاً فى الرؤية النقدية بين الناقد الدكتور رمضان بسطاويسى ، والناقد مجدى أحمد توفيق . إنهــا مجموعة متباينة كمــا قلت ويجمعها تعاطى الأدب ، ومحبته ، بوصفه جــزءا اساسياً من صميم وجودهم الحياتى ، والوجودى ، وبدلا من الصراع مع اجهــزة النشر الحالية ، الذى يستنفذ قدرات اى أديب ، ويحــول مواهبه الى مجــال آخــر ، رات المجموعة ان

تكتسب خبـرة النشر والمتابعة للكتابات الوليدة التى تتضمن قدرة جـادة وحقيقية على الإسهام فى الواقـع الثقافى ، من خـلال مناخ ديموقراطى حـــر ..

وطمـوح هـذه النصوص هـو المشاركة ، والقـدرة عـلى التواجد ، وخـلق رمـوز جديدة للقيـم الثقافية بعيـدا عن بعض السلبيات فى حياتنا الثقافية ، التى أصـبح ـ التواجد ـ أحيـاناً يكـون عن طريق عوامل ، ليس من بينها الخبرة والجودة الفنيـة والجمالية ، هـذا هـو طموحها البسيط ، وهـو رغـم بساطته صـعب ، أمـا طموحها البعيد هـو تأسيس رؤيـة للكتابة والنقد من خـلال هـذه النصوص التى نقـدمها من جيـل يعى المنعطف الإجتماعى والسياسى الذى تمـر بـه مصـر والأمـة العربية ..

إن أهـم ما نريد أن نؤكد عليـه ، هـو العقـل المفتوح ، وليس لدينـا مصادرات أو مبـادىء أولية ، وإنمـا نكتشف مـع القـارىء أنفسنا من خـلال الكتابة ، فنحن مـررنا بمـا مـر بـه الواقـع ، ونحترم ونقـدر جهود الـرواد السابقين والحاليين فى الإبداع المصرى والعـربى ، ونحـاول فقط أن نشاركهم الهمـوم الثقافية والإبداعية ونقـدم أعمالنا وإبداعنا فى صمت ، فى محـراب هـذا البلد ، الذى نحبـه ، ونأمل فى مستقبله . وليكن خلافنـا مع الأصدقاء حـول النصوص ، فنحن لا ندعـو الى الشـهرة ، انمـا الى المشاركة فى السـاحة الثقافية ، بعـد أن عجـزت الأجهزة أن تستوعب إنتاجنـا المتدفق ، فنحن نشرنا فى الداخـل

والخـــارج ، ولا نلجــأ الى هــذه الوسيلة ، نتيجة لرفض أعمالنا ، وإنمـــا اعمالنا تقبــل ، لكن تتـــأخر طويلا فى النشر ممـــا يعــوق إستمرار واقعية الكتابة لدينـــا ..

ولذلك هو امــل فى تأسيس قيــم جديدة فى الحيـــاة الأدبية ، للاعتماد على الذات ، وان العمــل الفنى هو اســـاس الحــوار واســـاس التواجــد .

تحيـــة لكل من ساهم بالمشاركة فى
خروج هــذا العمل الى النــور ..

إيـــام يوســـف المنـــسى

روايـــة

السـيد نجـــم

القســـم الأول

الخـــريف الحـــزين

السـقوط

[١]

انتهـز يوسف فرصـة حضـور المسئول الكبير ذى الوجـه الدموى اللامع ، فاقتحـم محرابه يشكو لـه هوانه وقلة حيلته . ابـدى المسئول اهتماما زائـدا تحت الأضـواء الباهرة ، سـمع منـه :

(انـا يوسـف عبد الواحـد المنسى ...
ثلاثـة أيـام بليلتين كنت تحت الأنقـاض)

الرجـل الذى وضمه تحت ابطـه ، اغرقه فى رائحة عرقه العفنـة ، تلعثـم اللسان خـلف الشفتين المنفرجتين وقـد رسمتا البلاهـة على سحنة الشـاب ، سرعان ما سـد فتحتى منخـاره علـه يوقف رائحـة الاتربة المندفعة نحـو رئتيه ، انحنى قليلا ، قبض على اسـفل بطنـه ، محصورا ، كـاد يبـول على المسئول امامـه .

الرجـل من ذوى القـامة الطويلة ، عـال الأنف ، مـال بجذعه حتى ايبين له ماينطق به الكركومى السحنة المرتعش الأطراف فأضاف من بعـد فـرط رائحة العطـر الزاعقة رائحة تجشـؤ ابخـرة اللحـم المشوى من خلف اسنانه التى بدت اكثـر بريقـاً مع ومضات كشافات آلات التصوير للصحف ، المجلات ، التلفاز .. ولهـواة جمـع الصـور النـادرة !

رفعــه الرجــل بهــدوء الكاظم لغيظــه ، شجعه ان يتابع . اغمض يوسف عينيه ، امتطى جــوادا ساحرا ، اخــذه الى أرض غــير التى يســير عليها ، تلك الأرض التى افرجت ما بين فخذيها ، ابتلعت منزلــه ، فيــه عــاش ثلاثاً وعشرين ســنة هى سنوات عمــره الا شهورا قليلة قضاها فى منزل جــده لأمــه بــ « حيضان الموصلى » احــد ازقــة الدرب الأحمر ، كانت أمــه قليلة الخبرة ، تلجــأ الى حنكة امهــا .

فعلت حين ولادة « صــابر » ، ولدهــا البكر ثم كف خصبها لسبع سنوات . نبت يوسف بين احشائها فيمــا يشبه المعجزة ، ظــل الوليد الأمــل حتى بعــد أن انجبت بنتــاً وولدين من بعده . منــذ طفولته المشاكســة انتبــه على امــر جــد خطــير .. شــق قصــير فى حــائط المنزل ، تابعــه يكبر طولا ، وعمقاً ، وعرضاً . اخبرهم — الجيران وابــاه — كان جوابهم :

(ليكن آيلا للسقوط .. لن نتركه ، الى اين المسير ..

ان هــلك نهلك معــه ، ان بقى سيبقى سترنا ؟!)

وقتهــا لم يفهم يوسف ســر رغبتهم الدفينة — الجماعية — فى الهــلاك !

مــاذا على ان اقــول ؟

عن ميتــة ابى .. احتــواه الهــلاك وهــو فى المرحاض ، كانت ليلــة « السنمكة » ابى صاحب الدعــوة القائلة : « طــول ما البطن نظيفة ، الجســم بعافية » . ليلتهــا زاد الجرعــة . وجــدوه عــارياً على هيئته فــوق قــاعدة المرحاض منحوتاً فى الحطــام .

عن ميتـة أمى .. ليلـة « السنمكة » ترقـد فى حجرة اخوتى الصغار ، وجدوها بين الأنقاض محـلاة باساور من اكف اخوتى . لباسها البـالى الدمـور مزقته اناملهم الرفيعة . يبـدو انهم تشبثوا بهـا وهـم يلفظون انفاسهم الأخـيرة .

ــ صمت ، ابدى المسئول اهتماما سيالا تحت هالة الضـوء ــ

اما عن نفسى ، فقـد اختارت لى الأقدار جبـاً صغيرا صنعته اعمـدة خشبية متقاطعة اعـلى سريرى ، قبرت حيـاً .. هـل تصـدق ؟!

ظللت اصرخ : النجدة ، النجدة . لم يسمعونى ، هـل تعـلم سـر تجـاهل صراخى ؟

فجـاة ، كفت كشافات آلات التصـوير .

الاختفـاء احتوى النـاس ، الأشياء ، الأمـل ، لم ينطق مطلبـه ، أن يامـر لـه المسئول المهـم بمسكن ياويـه . أسـلم وجهـه نحـو هؤلاء الملتصقين بنعـلى المسئول ، التصق بهـم ، اختفى ظـل الرجـل . ظـل يسعى لحوحاً . حـاول أن يعرض مطلبـه .

اخـيرا سمعها :

« جهزوا لـه حجرة فى مساكن ايـواء قلعة الكبش »

فتعلق يوسف بأحدهم ، المسئول عن تنفيذ الأمـر الشفهى . ثانيـة تـاه .

زاحونى بعيـدا ، انتهى امـرى . انشغل المسئول بآخـر فى لقطـة ثانية . من جـديد ازدادت هـالة الضـوء ، ارتبـك الشـاكى ، هلوس وبكى . انتحيت جانبـا وحدى فى الظلمـة . تذكرت مقـولة أمى ذات مسـاء بارد وانـا فـوق فخذها أمـرغ صدغى فى دفئهـا .. قـالت :

« ولدتك يا يوسف ولم تبك . . . قالوا الوليد الميت ولد . اشحت بعيدا وبكيت . ضحكت جدتك العجوز وهى تغمر انفك فى بصلة حتى بكيت يا ميت » .

آه يا أمى ، منذ تلك الليلة البعيدة عرفت سر كراهيتى للبصل . الآن اشعر برغبتى فى البكاء ، لكنى لا أملك بصلا .

[٢]

« يابن المنسى افندى » . .

قالها المعلم « محرز » صاحب المخبز البلدى فى الحارة . أذرع اخطبوطية سحبته دون أن ينبس الشاب بكلمة ، كف البوح والانتباه . انسحب مع تلك الكف الغليظة الصغيرة التى تدفعه من كتفه . المعلم لم يسمح له باتخاذ قرار ، قال كلاماً كثيرا ، ماكان اكثر من شفتين غليظتين سوداوتين تتلوى . اجلسه عنوة امام الطابونة ، امره بشرب الشاى ، انقضت فترة من الزمن البليد يئس المعلم من سحنة يوسف المحايدة ، امره بالبقاء فى الطابونة يعمل ويعيش .

. . . هل انا نكرة ؟!

ترى لماذا لم ينادنى هذا الرجل باسمى ؟

اكيد يتعمد ذلك . انا اعرفه جيدا ، يعشق لعبة الأنساب وتأصيل الأسماء ومعرفة كل صغيرة وكبيرة داخل بيوت الحارة . كانت سر الخلاف الخفى الظاهر ، الهادىء المتجدد ، الدائم مع ابى . انتهى المعلم محرز منذ زمن بعيد الى ان لقب « المنسى » هذا صفة لشخص هو الجد الأكبر لعائلتنا ، نحن سلالة لقب لا يشى بحرفة احترفها الأجداد ، أو مركز اجتماعى

كان لاحـد اجدادنا الكبـار ، وبلا معنى البتـه .. هـل هـذا سـر اصراره على الا ينادينى باسمى .. ربمـا ! أول الأمـر تردد يوسف كثيرا ، يتقدم خطـوة ويفتعل السعال الجاف ، فى الأخرى يحسن هندامه . عندما دخـل لم يلق التحية ، لم يلتفتوا اليـه . اضطجع فـوق اعلى رصـة لأجولة الدقيق . « أبـو عـواد » احتـل الرصـة المجـاورة والمنخفضة قليـلا . يعرف عنه الكثير ، فهـو صاحب الصـوت العـالى واللسان اللاذع ، لا يفضى بخبث فى السريرة ولا بسر يتكتمه ، لا يفضى بموضوع ذى قيمـة ، كثـيرا ما ينس ، ربمـا لانـه لا يسمع محدثه أصـلا .. وكلهـا مجتمعة كانت سببا فى حديث يوسف اليـه ولأول مـرة يتكلم .

(وانـا فى الجب يا عـواد ناديت على كـل الناس بالاسم ، اصوات كثيرة سمعتها ، تذكرتها ، خيـل لى فى الظلمة انهم بالخارج حـولى ، فوقى او تحتى ، لم اسمع ردا ، قلت ربمـا الظلمـة او لعلنى فى القبـر ، ضبطت نفسى افـكر فى النـاس ، هل تعرف السبب ؟) بعـد فتـرة تابـع يوسف : « انا .. اقـول لك ، ايـام الزمن الحسك نقـول ان الناس هى السبب وهى الخلاص ».

نطق ابـو عـواد : « معـك سيجارة ؟ عداك العيب ، عداك العيب » .

تاكـد يوسف ان رفيقـه لم يسمعه ، تابـع محدثا اذنيـه بعـد ان استدار ، بحلق فى سقف الطابونة العـالى ، غطتـه طبقـة من الهبـاب السميكة ، تابـع :

(وانـا فى الجب لم يسمعنى احـد .. ربمـا بسبب الضجيج ، عموما ليس بسببى ، ولا بسبب انهيـار المنـزل) .

اشـــار الى احدهـم ان يلقى اليــه بقلــة الميــاه . تذكــر شــوقه الى جــرعة مــاء وهــو فى الجب ، فشرب اكثــر . وقتها لم يسمعوا صراخه سمعهم خــارج حــدود الانقــاض يتحاورون فى امــر بنــاء « سوبر ماركت » ثلاثة أدوار بعــد رفــع الانقاض ، لأن صوتهم اعــلى ، كف المحاولة . وقتهــا اكتفى بالتقاط قطــرة سقطت من عينيــه الى زاويــة فمــه .

اثناءهــا ، تملكته موهبــة غريبة ، لم يعــد يسمع فقط لانــه رغب فى ذلك .. انتبــه فعاودت اذنــاه العمــل ليسمع ثرثرتهم .. كف الاستماع عمــدا فنجــح ، اعجبته اللعبــة ! اكثــر ما المنى ان سمعت اغنيــة « غريب الدار » . سمعت جنديين من الأمــن المركزى المحيطين بالحطــام يرددان عشقهما لذات الأغنيــة .

اعــرف عمــال الطابونة جيــدا ، متــاكد ان تجاهلهم لى بقصــد الا يثــيروا اشجانى ، وما حــدث لى لا يستحق اكثر ممــا نــال منى ومن غــيرى !

كــم قضيت من الليالى بصحبتهم . معهــم تعلمت كيف أعلق السيجارة واتحــدث ، كيف اشعلها ؟! منهــم سمعت النكات التى ترضى رغبتى الشبقية ، وعرفت الكثــير عن تجاربهم الجنسية .. مزايــا اعضائهم الذكرية بعضهم فــوق بعض . من بعــد تأكــد لى ان الدنيــا ظاهــرا وباطنــا ، وهــؤلاء القانطون فى الطابونة باطنهــا .

[٣]

لم يفــارق يوسف حــدود الطابونة ، لم يشارك فى حواراتهم ومأكلهم ، ليس لــه عمــل محــدد مكلفــا بانجازه ولا حتى تسجيل حسابات المخبــز كمــا توقــع فى اول الأمــر .

فى الصبــاح الجــديد ســال احدهــم :

« من قبر ابى وأمى واخوتى ؟ » .

ادعى الرجل انشغاله ، رد بعد فترة :

« من قال انهم قبروا ؟ » .

ماكان يوسف الا عينين محدقتين الى اللاشىء . كأن روحه فاضت منه وهو مفتوح العينين .

علت اصوات مختلطة ، احتوت الحارة والحارات المجاورة ، اعلنت خبر وصول البلدوزر ، على الأثر وقع يوسف على الأرض ، اندفع متابعاً على أربع لخطوات قليلة ، نهض يعدو ثانية نحو الخارج . لم يجد وسيلة الا مشاجرة الجنود بملابسهم الحداد ، أن يتركوه يمر . الضابط الكبير اشار لهم .. « دعوه يمر » ، ثم انشغل بقط يعدو خلف وليفته فوق الأنقاض .

وقف يتابع حركة البلدوزر يخور كلالة ومللا وهو يمزج الأعضاء البشرية بالأشياء والتراب . لم يتحمل أكثر . سقط مغشياً عليه .

لم اتابع ما تم ، لم أرغب ففقدت رشدى .

من بعد تحرشوا بى عمدا ، لا ادرى كيف اصبحت على هذه الدرجة من الأهمية !

التقطوا الصور ، وكل كلمة أتفوه بها .. سالونى واجبت :

« بماذا كنت تشعر وانت بين الأنقاض ؟ » .

« فى الجب .. » .

« ... وانت فى الجب ؟ » .

بعضهم لم يفهم ما أعنيه وغمز بطرف عينيه لزميله

« هـل لك ان تصـف تجربتك مع المـوت ؟ » .

« .. لحظتها ما كنت اشعر انهـا لحظـات المـوت ، كنت افـكر فيمـا يجب على ان افعله .. قـررت الرقاد تحت السرير ، وجدته افضـل بالرغـم من الأرض المزقة تحتى ، تكـورت داخل بطانيـة صوفية ، شعرت بالطمأنينة داخلهـا . قـررت الا ابول ، أن اشرب دمعـات عينى ان بكيت . قـررت أن اصـيح بأعـلى صوتى على فتـرات منتظمة . لا احفـظ كثـيرا من الآيات القرآنية اكتفيت بالفاتحـة والصمدية » .

« ومـاذا أيضـاً ؟ » :

« كلما مـرت سـاعة من الوقت ـ ولا ادرى كيف كان حساب الزمن ولكنى قـدرته باحساسى الخـاص ـ شعرت اكثـر بالأمان وبالرغبـة فى اشـياء بعضها غريب » .

« مثـل مـاذا ؟ » :

« ظننت أن اهـلى يعيشـون ازمتى ، فـلم اكف الصياح عليهم فـردا فـردا . اشتهيت الذرة المشـوى ووجـه حبيبتى » .

ضحك الجميع من فـرط المفاجأة ، سألوه عنهـا واسمها ، رفض ان يفيض اكثـر ..

تابـع :

« الآن ارفـض مقابلتهـا » .

بعـد فتـرة صـمت سالونى :

« كـم لبثت فى الجـب ؟ » :

« لم اجـب » ، تابـع آخـر :

« التقطوك مصـادفة بعـد ان كانوا قـد اداروا ظهورهم » .
« احـد الجنـود قـال انـه سـمع اواهـاً بين الحطـام » .

قاطعتهم وقـد تذكرت امـرا ..

« لكن لم اجـد حجـاب ابى ولا صورتها » .

« ســوف تجدهـا عند ســفح هضبة المقطـم ، هناك سوف يلقــون كـل النفــايات » .

« لم اجـد الصندوق الأســود الصـغير ، فيــه مدخرات أبى القليلـة ؟ » .

« عن تلك الأشــياء واشباهها .. فـلا تســال » .

« اين اذن اجــد بطاقتى الشخصية ؟ وكـل مستنداتى الرسمية ؟ » .

« امــا عن تلك اكيــد .. اكيـد عند ســفح الجبــل » .

الصـــفعة

[١]

وجـدت فى الألـم لـذة وفى الصمت ، تعـودت التـألم فى صـمت والصمت فى الـم . اكثـر ما يؤلمنى ، اصرارى على رفض مقـابلة « امـل » الحبيبة .. حضرت لأكثـر من المـرة لمقابلتى داخـل الطابونة التى فيهـا اعيش .

لكن ، تـرى لمـاذا فعلت ذلك ؟ .. خجـلا ، انهـا تعرف كـل صغيرة وكبيرة عنى منـذ سنين طويلة سقط حـد المداهنـة بيننـا ، رفعنـا أسـاس المصارحة .

ربمـا لشعورى اننى لم اعـد امـلك .. اى شىء .. وكل شىء .. حتى هـويتى .

ربمـا لرغبتى الدفينة ان ابـدوا امامهـا ومعهـا دومـاً اننى امـلك شيئـا ما اكثـر تفوقـا عليهـا . اكيـد تفوقنى ماديـاً ، ابوهـا يملك مكتبـة فى وسـط القاهـرة فى شارع الشواربى .. غـير ذلك دومـاً عنـدى ما اتفوق بـه عليهـا حتى خطى افضل من خطهـا فى الكتـابة .

لا استطيع ان اخفى بالرغـم من ضعضعة حـالى وانهيـار عنـاصر قوتى ، اننى بت اكثـر عدوانية عمـا قبـل .. لمـاذا ؟ هـذا ما اشعر بـه ، صـادق فى التعبير عنـه . رفضت مقابلتها وتألمـت ، مع ذلك تراودنى رغبـة عـارمة ان تظـل تحضـر وتحـاول وارفض مقابلتها ثانيـة وثالثـة .

لفترة ظـل رفقـاء الطابونة ينظـرون اليـه رحسـب . العجـان ، القـراص ، الفـران ، المنـاول والزبائن ، كلهـم يبكون حـاله بلا دمـوع ، قـد يدمعون بعيدا عنـه . قرارهـم حـالا الا يتركوه وحـده يسقط أمـام اعينهـم .

فى المساء تعمدوا تبادل النكات الساخرة عليه . سخروا من طريقة نومه التى بلا شخير ، من كلمات الشكر والاستئذان التى تسبق وتلحق بطلباته القليلة ، من عينيه السوداوتين الجميلتين ، وشعره الناعم ومن اشياء كثيرة لم يخطر على باله ان تكون محل سخرية .

طال المزاح وصمت ، تارة بالكلمات ، مرة بالغمزات ثم بلغه غامضة غير مفهومة . ركز حواسه جيدا . اخيرا اكتشف اللعبة . انهم ينطقون الكلمات بعكس نطقها وكتابتها ، ينطقونها من اليسار .. دهش أن وجدهم جميعاً يجيدونها .

تساءل وقد بدا الانفعال على وجهه :

« لماذا تعاملوننى هكذا ؟ » .

قبل ان يجيبه احدهم ، اعترضه اطولهم طولا ، قال :

« انت ياجدع ، شوف لك عمل ، عامل افندى علينا »

تابع « عبدون » المرشوق أمام فتحة بيت النار — الفرن — والسيجارة المطفأة مدلاة بين شفتيه ، لن يشعلها قبل ان يبرد الشاى ، قال :

« الأفندية » تقعد على المكاتب ، خسارة الطابونة من غير مكتب .

ثانية عادوا الى لغتهم وضحكوا ..

انتابت يوسف حالة من القشعريرة ، اندفع اليه « عم يعقوب » ذلك العجوز المتابع فى صمت . التصق بأذنه . عينا يوسف التقطتا غضون الرجل الغائرة فى بشرته المحترقة ، بان لحم جسده من خلال الجلباب المثقوب اكثر بياضاً ، راسه مغطاة بمنديل محلاوى ممزق ، عقدة أمام جبهته ،

تـرك طـرف العقـدة أمـام عينيـه فبـدتا كقـرنين لحيـوان منقـرض . قـال :

« الجمـاعة تحبك ، هـو انت غريب عليهم ، بدهـم تكون معـاهم وواحـد منهـم » .

لم يجـد يوسف ما ينطق بـه . اشعل سيجارة .. « هـل حقـاً ما يقـول ذلك العجـوز المخضرم .. لا اظـن ؟! . سرعان ما مللت الحـوائط المتشققة المطـلاة بالهبـاب ، سئمت مشـهد الأرفف الخشبية الممتلئة بالحـوامل المصنوعة من سعف النخيل ، مـوزع عليهـا أرغفـة الخبـز ، كـل خمسة منهـا فى جـانب . قـد تـرص تلك الحـوامل فارغة فـوق بعضها البعض عـلى الأرفف الخشبية حـين زمن التنظيف ومسـح تلك الأرضية التى اختلطت عليهـا الأتربة بالدقيق والـردة مخلوطاً بوقود ماكينـة الاشتعال الأسود . كلهـا صنعت طبقة يصعب وصفها وازالتها ، باتت ضمن اساسات البنـايات القـادمة .

كرهت مشـهد العنكبوت الغـامض الرمادى ، نظرات عيون من حـولى ، نداءهم الجديد : « يابن المنسى » . منهـم من يضيف لقـب الأفنـدى .. منهـم من يسبقه بـ « ياواد » ، يتشبهون بالمعـلم محـرز . فشلت فى اقناعهم باسمى .

بمضى الوقت ، اشياء كثـيرة بانت ، كشفت عن نفسها ، اكثـر ما جعـله دهشـاً أن تضـم الطابونة بين جـدرانها من شـتات الأرض نفـرا عديدين ..

« أبو عـواد » ذو الصـوت الجمهورى ، الفارع الطـول ، النحيف ، عـار الصـدر دومـاً حافـرا بالوشـم الأخضر على صـدره « أبو زيـد الهلالى » شاهرا سـيفه ، ممتطيا جـواده .

لقبـوه بـ « الجعجاع » لفـرط ثرثرته تفاخرا بمـا ليس

فيه . اسمه « عـواد » اضافوا لقب الأب ليكون مضرب الأمثال بينهم . انـه من مهاجرى مدينـة السويس . وجـد فى الطابونة مستقرا . نادرا ما يسـافر الى مدينة ولعلـه سـر لم يكشـف عنـه بالرغـم من ثرثرته . كثـيرا ما يضبطونه يبكى .. فقـط اذا ما اختلى الى نفســه ، نادرا ما يفعـل .

« عبدون الخشــن » بدين ، قصــير ، محترق البشرة . ملتهب العواطف شوقـاً لداره هنـاك باحـدى قـرى الصعيد . امتطى ظلـه داخـل الطابونة هـرباً من الثـأر . يجيـد الغنـاء الصعيدى ونفـخ بطنـه كالبالونة ولعبـة السيجة تلك اللعبـة التى لا يحتـاج لهـا اكثـر من سـت حصوات صغيرة وحفنـة دقيق يخـط بهـا تسعة مربعات على الأرض . كثـيرا ما يتركونه وحـده فيلعبها وحـده أيضـاً .

« محمـد الملط » وحيد أمـه وابيه . ماتـا بعـد ان انقلبت بهمـا السيارة الأجـرة المتجهـة الى مدينة طنطـا لوضع الشموع على مقـام « السـيد » والقـاء النذور ، كعادتهما كـل عـام منـذ ميـلاد محمـد ، وقـد حرمـا من الخلفة لسنين طويلة ، كان محمـد من الناجين . نقـلوه الى احـدى المستشفيات . خـرج منهـا بعـد فتـرة . زار حـزمة قبـور وقـرا الفاتحـة على والديه . استلم الاعـانة وانفقهـا . اخـيرا وجـد فى الطابونة ملجـاه .

« حمـودة المشـد » الشاحب الوجـه ، الألدغ . هـارب من حـكم النفقـة الصادر ضـده . يقـول : خانتنى ضربتها ، تـررت قتلهـا وقتله ، هـرب المجـرم ، صرخت الفاجـرة . شـهد الجيران لصالحها أمـام القاضى ، طفشت .. لكن صدقونى العيـال وحشتنى .. مشتاق لهـم .. مشتاق .

« عـم يعقوب » العجـوز الهـرم ، يكتفى دومـاً بجمـلة بذاتهـا .. « أنـا حكايتى حكـاية ، أنـا حكايتى حكـاية .. صدقونى » يرفض البـوح .

وآخـرون لا يلبثون الفـرار ، أما لقلـة احتمالهم مشـقة العمـل وأمـا لضآلة الأجـر اليومى .

قضيت معهـم الزمن الوئيد ولم اعرفهم جيدا . فقط شعرت بقياسات الزمن الغريبة ، داخـل الطابونة لـه قسمته الخاصة . اليـوم فى الطابونة ليس نهـارا للعمـل وليـلا للنـوم ، ليس افطـارا ، غـداء وعشـاء . انـه بلا بدايـة ، بلا نهـاية . النـوم وقت مـا ، العمـل فى كـل الأوقات ، فيهـا يلتقمون الخبز السـاخن بلا غموس أو مع كوب الشـاى الذى يفضلونه باردا . ربمـا يلتقمون العيش مـع حبات الطمـاطم والخيـار . قـد يضعون فيـه « السـمين » كمـا يسـمون تلك الدهـون التى يشترونها من بيومى الجزار ، قديما كان يرسلها لهم ، فى السنوات الأخـيرة يطالبهم بمبـالغ تفوق قدرتهم . الرجـل بيومى انسعر . كان من أجـل الجيرة يبعث بالخـير من دهـون وحلويات وعكوة ، قالهـا عـم يعقوب ذات مسـاء وتابـع فى ليلة تاليـة : « اليـوم لو طـال يبيـع وسـاخة المصارين يعملها ، لذا أرسل لـه العيش السحلة ! » .

كلام كثير قـاله الرجـل فيمـا بعد ليوسف وقت القيلولة ، تلك الفتـرة التى تبـدأ من منتصف الليـل وحتى الرابعـة من صبـاح اليـوم الجـديد ! . اثناءهـا تهمـد الأفـران المشتعلة ، يقـل المشترون ، ليبدأ عمـل جـديد اقـل مشقة .. يرصـون الأرغفـة المتبقية على الأرفف ، ينظفون الطابونة وبيت النـار ، يرصـون أجـولة الدقيق ، يجهزون العجـين وتخمـيره لليـوم الجـديد .

انها فتـرة المزاح ، الذكريات ، والحكى والخـدر ، فينفرط عقـد اللسـان ، يصفون فحولتهم واوجـاع الزمن معهـم . تهـون مافى النفـوس من اسرار ينقلبون الى مخلوقات اخـرى . يختفى اثنـان منهـم ، يعودان فى صمت قـد يمضغان الخبـز الذى فقد حرارته ، ليعرف يوسف أن الشـذوذ الجنسى من اعراف اهـل الطابونة ، فـلا يوجد بينهم معترض ولا من بواح بسره . خـلال القيلولة التالية اقتـرب أبو عـواد وفى يـده الجـوزة ، نفـخ دخانهـا الأزرق على وجـه يوسف ، عبـأ المكان برائحة الحشيش وبالدوار ، التصق بـه احدهـم حتى لامست بطنـه أنف الشـاب الدهش لفتـرة . . . حتى بدأ الرجـل فى دفعـه عنـوة ، الدمـاء اندفعت الى يافوخـه ، احتقنت عينـاه واذنـاه ، نهض ، كظـم غيظـه فى ثقـة ، بقـوة صـفع الرجـل صفعة واحدة ، انتبـه على صوتها النـائم والصـاحى .

الصفعة اتلفت فعـل الحشيش . نفـرت الدموع ، اندفعت من خـلف عيونهم ، كلهـم وبينهم يوسف . كانت ليلـة البـكاء ، الحـزن الصامت لم تكفهم الليلة ولا الليالى التالية لمحـو اثـر تلك اللطمـة فـوق أصداغهم .

[٢]

سمعت آهـات حناجرهم ومن صدورهم . حمودة يقسم انـه يسمع بكاء اطفاله وضحكاتهم . أبو عـواد يقـول ويكـرر . . « انـا السبب ؟! » اخـيرا عرفنا سرا من أسراره ، كان السبب فى استشهاد صديقه وشقيقه فى الرضاعة أثناء حرب أكتوبر ليلـة التاسع عشر منـه امرهـم قـائد المؤخرة بالانسحاب بعـد أن تأكـد من تلك الدبابات التى تعربد أمامهم ، انهـا دبابات الأعداء بعـد الثغـرة تهـرس اجساد جنـود المؤخرات وقـد عبـرت

الوحدات المصرية الى الضفة الشرقية ، هؤلاء الجند العزل الا من بنادقهم الصغيرة والتى نسيها ابو عواد . صرخ فى صديقه أن يتصرف حتى لا يحاكم ، تسلل صديقه الى موقعهما الأول ، ذهب . مازلت فى انتظاره واهل قريتى . لم يعد ولم اذهب الى قريتى هرباً من سؤالهم . أما عبدون ففى زمن البكاء الليلى ينهض ، يترنح ، يرقص رقصاً رتيباً بطيئاً مع ايقاع تلك الضربات المنتظمة بالعصا على الأرض ، الحوائط ، والأرفف الخشبية من حوله . لم يأت زمن بوح عم يعقوب بعد وان حاولوا معه .

خلال ليلة تالية قال عم يعقوب ليوسف : يابنى نظف نفسك !

تذكر يوسف أنه لم يستحم منذ زمن ، على استحياء استفسر .. كيف ؟.

سحبه العجوز الى الخلاء خلف الطابونة ، بلا جدران وبلا سقف .. قال له :

« اشعر بعيون العالم ترصدنى »

ضحك العجوز : ادخل ذلك البرميل .

اختفى الرجل برهة ، عاد بعدها حاملا جردلين من المياه ، احدهما به ماء ساخن . اكتشف الرجل أن الشاب الصغير لم يبرح مكانه خطوة واحدة ، فساعده ان يخلع ملابسه . بدأ يهم بالقاء المياه على راسه حتى انشقت الأرض بعمال الطابونة يضحكون عليه ويهللون ، قالوا :

« يوسف عريس الليلة يا جدعان »

لم يجد الا السباب واللعنات ، حاول اللحاق بأحدهم وهو يرفع البرميل المفتوح الطرفين بكلتا يديه ويعدو .

ابتسم عـم يعقـوب متابعـا الشـاب ، قـال :

« فى زمن الحرمان ، تتحقق الأحـلام فى الكلمات .. وحسب »

لمـا شعر ان يوسف لم يفهـم ، تابـع :

« لا يهمـك ، كـل ماف الأمـر انهـم يبغون معرفتك

ان يعرفـوا كـل شيء عنـك ! » .

بعد فترة صمت انتبـه يوسف على صـوت العجوز الواثق :

« يا يوسـف يابنى ان نسـيت الحكومة تنسـاك ،

تابـع مع المسـئول الكبـير يعمـل لك مـأوى » .

الخـــــروج

نجحت أن يكون لى على الأرض مكان ، فيــه احلم واعيش . غــدا ســوف يصنعون لى حجـرة خشبية فى مساكن ايواء قلعة الكبش . لن اخبرهم بموافقة المسئول المهـم ، اخشى الا يتحقق . اخــاف من تعليقاتهم .. ربمــا خوفى من .. ممن ، لمــاذا ، كيف ، ما السبب .. ما عــدت ادرى ؟! الخــوف كيان يسرى فى عروقى ، بعــد استخراج هــوية جـديدة لى مازلت اشعر اننى بلا هوية ، بلا صــك يضعنى بين الناس فـردا ذا قيمة .. ايــة قيمة .. !

ظــل يوسف مفتــوح العينين حتى فجـر اليــوم الجديد ، فى الخــلاء خلف الطابونة القى فــوق جســده العارى جردلين من الميــاه الدافئــة ، نفض عن ملابسه حبيبات الــردة والدقيق العالقــة بهــا دومــاً .

القى نظرة اخــيرة عليهم وقد انشغلوا فى اعمالهم الروتينية ، كمــا رآهــم أول مــرة . ادار ظهـره ، ذهب دون ســلام حتى عــم يعقــوب افتعــل انشغاله فى شىء مــا .

دهش يوسف أن ســمع المــلط يحادث حمــودة بقلق قائلا : « رها ظــلا قــوى جــراح ! » رد عليه الآخــر بصوت هادىء . « مع الف ســلامة ! » .

القاهــرة لم تصــح بعــد ، وصــل يوسف الى شارع محمد عــلى الطــويل ... المنــافذ على الجانبين مظلمــة مصكوكة ، القلعــة بقبابهــا تحجبهــا الشبورة فــلم يتبينها واضحة المعالم . قالوا لــه .. قلعــة الكبش على مقــربة منهــا ، دعهــا دليلك ،

اسـال هنـاك ، كلمـا كشفت القلعـة عن نفسها زادت ضربات قلبـه ولعبت الهواجس فى راسـه . تقاسم الخطـو مابين حـلم وحـلم ، مابين فـكرة وحادثة ، مازال الخـوف الغامض يغلف الكـون من حـوله . شعر برغبته ان يعـلو الناس . صـعد الى اعـلى القلعـة ، نسمة رطبـة هدهدته ، اشعة الشمس الخجلى دغدغدته . شعر كـان افـلاك الكـون من حوله تداعبه فانتشى .

اشـار الى اكـوام المنـازل من تحتـه هناك .. قـال :

« وسـط كل هـذه الحوائط . لا يوجد جـدار يسترنى ! »

ضرب الارض بقـدمه ، بـدا يعـدو ، انهـكه العـدو ، سقط مغشيا عليـه .

احدهـم حـدق اليـه ، بهـدوء نطـق :

« اعطـوه جـرعة مـاء »

شـرب يوسـف حتى الارتـواء . عـاد الرجـل وحـدق فى سحنته ، قـال :

« الجـدع جـائع أطعمـوه »

اطعمـوه شيئا لم يتذوقه ، شـعر بالامتلاء ، تركهـم الى الشـوارع الضيقة ، طريقـه الى المساكن .

تأمـل يوسف المحـال المغلقـة وكلبين يعدوان خلف بعضهما فـوق الطرقات الخاوية ، لمـح كلاما مسجلا ومكتوبا بالصبغة فوق الحـوائط .

« الحـرب سـجال » ..

« ياسادات ، ياسادات ليـه اخترت جمـال بالذات » ..

« الوداع ياجمـال ياحبيب الملايين .. الوداع » ..

شـــعر يوسف وكـــان معـــدته تمـــردت عليـــه ، اجتـــر افرازاتهـــا الحمضية ، انثنى على نفســـه ، تمـــلؤه الحسرة . ينظـــر فـــلا يـــرى . تذكر انـــه لم يبـــك طيلة حياته الا مـــرات قليلـــة ..

عنـــدما اخبـــروه باعتبـــار اخيـــه « صـــابر » فى عـــداد الشـــهداء بعـــد حـــرب ٦٧ .

يـــوم اذاعـــة نبـــا مـــوت عبد النـــاصر ، وفى الطـــابونة .

فصاح بصوت عـــال ، زاعق .. لم يسمعه الا حمارا هناك يلجمـــه صاحبه فى العـــربة لبداية عمـــل اليـــوم الجديد ، قـــال :

« احبـــك يا بلـــد ..

احببت اخى ، ان مـــات او فقـــد .. من اجـــلك ..

احببت من كبرت فى عهده ان حقـــا او غفلة .. من اجلك ..

لمـــاذا اذن تكرهيننى .. هـــه .. لمـــاذا ؟! » .

المحبس

[١]

بات لى حجرة خشبية . اقتطعوها من احدى الحجرات بمساحة تعادل طول قامتى وعرض أردافى . صنعوها من صندوق متهالك . لمحت رسوماً على احدى جوانبه لكأس مقلوبة بجانبها كلمتا « قابل للكسر » مقلوبتان ايضاً .

منذ الواحدة بعد الظهر وحتى العتمة انشغل ثلاثة من العمال التابعين للمحافظة فى تجهيز محبس جديد . فتحوا لى طاقة تطل على الجانب الآخر ـ قلب المساكن ـ وشقوا شقاً انحنى تحته حتى ادخل حجرتى .

صنعت مرقدا من بقايا الخشب واربعة اركان حجرية من بعض الأسمال والخرق التى جمعها لى « شمروخ » ، أول من قابلت على هذه الأرض . جاءنى زاحفاً على اربع ، مقوس الظهر والرقبة ، رافقنى منذ لحظة حضورى .

اخيرا رقدت فوق مرقد بين جدران اربعة . شردت وانا اتأمل حالى :

« ما رايت مقبرة فى حياتى . لم احضر دفن اهلى ، لكن اكيد .. اكيد ، لا تفترق كثيرا عما أرى » .

امتد على المرقد الصلد وشرد ..

منذ ان وطئت قدماه ارض المساكن ، مشهد الفوضى

مـلا صـدره بالضجر والسـقم ، روائـح العفن اتخمت نفسـه بالاشمئزاز . سمع حفيفـاً لاصوات بشرية خـلف جدران الغـرفة الاصلية . لم يسـمع ردا وان حـاول التعـرف على قاطنيهـا . كـأن الأرض شقت ، قذفت بصبى يلهث ، يتقـدم على اربـع ، اذنـاه اكبـر من نسبة راسـه الصغير ، واسـع العينين اللتان تبدوان بلا جفـون ، ينطق الحروف مضغومة ، الكلمات منقوصة ، العبارات غـير واضحة المعنى .. قـال :

« أنـا شمروخ ، من أنت ؟ » ..

« أنـا يوسـف المنسى » ..

فـورا لاحقـه الصبى بسرد الكثـير ممـا توقـع يوسف أن يسمعه ، وممـا لا يتوقـع أن يعـرفه عن المساكن واهلهـا ، دهـش ، التـزم الصمت لفتـرة ، تابـع شمروخ يسـأله :

« قـابلت حـريم العضـل ؟ » ..

« أبـدا .. من هـو ؟ » ..

ولى شمروخ الأدبـار على اربـع كمـا جـاء . انـه مجهول المـولد والأهـل . لـه حضوره الخـاص بين أرجـاء المساكن ، فهـو شـاهد الاثبات والنفى ايضـاً ، حسب احـوال . هـو العـين لـمن لم يـر ، والأذن لـمن لم يسمع ايـة واقعة تحـدث بين أرجـاء المساكن ، الوحيـد المسموح لـه بمجالسة النسوة .. حتى انهن لا يسترن عورتهن فى حضـوره ولا يخجلن من قـول او فعـل فى حـال وجـوده بينهن .

قبـل أن يدخل يوسـف الى محبسه ارتطـم بـه احدهم ، قـال لـه بالفعـل :

« هـكذا تستقبلون ضيوفكم ؟! » .

« هنـا لا توجـد ضيوف .. كـل من عليهـا امـا لـص او هـارب من الشرطة وامـا من سكانها الغـلابة » .

لم تطـل دهشة يوسف طويلا ، تابـع الرجـل :

« هنـا الناس قطعت دابر الدنيـا خارج اسوار المساكن »

بصـوت دهش هـامس رد يوسـف :

« اين الأسـوار ؟ » .

بسرعة سـمع الـرد :

« وهى جهنـم لهـا اسـوار » .

« حـيرم العضـل » صاحب اليـد الطولى والكلمة الفصل ، قـدم نفسـه بمـا يليق بمقـامه الى يوسف ، قـال ضمن ما قال :

« انـا المـلك ، انت من سـكان مصـر عتيقـة أكيـد سـمعت عـنى ! » ..

تابـع : « المهـم ، انـا حـيره العضـل ملك السلخانة . هبـاش عنبـر ٣ ، اكبـر العنـابر ، عنبـر الأكـابر وملـوك السـوق .. عنبـر الحـكومة » .

ـ « ايـة حـكومة ؟ » ..

ـ « هـو اسمه عندنا عنبـر الحكومة ، المعـلم فيـه يفك عشرة من معلمين الأسـواق .. اسـم ، وثـروة ، وعـزوة ودنيـا غير دنيتكم . وانـا (هبـاش) العنبـر بمـائة من (الهباشة) فى سلخانات البـلد » .

ـ « والهبـاش فى السلخانة يذبـح » .

ـ « الهبـاش فى العنبـر ملك ، يعنى انـا ملك هنـا وهناك » .

ـ « ارجـوك امـا تفهمنى او تتركنى أنـام » .

ـ « ... انت السـاكن الجـديد ؟ » .

وافقــه ، دخـلا معـا المحبس ، جلسـا على المرقـد .
تابـع حـيرم وحـده :

– « شغلتنا مهمـة ، نقـابل الطبيب البيطرى عند باب العنبر ، ما نتركه الا عند باب الخـروج ، خطـوة بخطـوة معه غرضنا ينتهى الحكيم من الوردية بأقـل خسـائر ممكنة فى الذبائح » .
ضـحك كمـا لم يضحك من قبـل ... !

« يامـا خفيت عنـه العيوب وضحكت على اجدعها حـكيم .

لـو كانت الذبيحة مريضة بالسـل « نقشرها » . لـو فيهـا حصـاوى أخـايل الحكيم لغـاية ما ازيحها ، ، ولو الكبدة متغيرة

احلف عليـه .. اعمـل المستحيل واهربها منـه .. ويامـا كنـا ننقـل رؤوس ذبائح صغيرة لذبائح كبـيرة ونختمها على انهـا ذبيحـة صغيرة .. وغـيره ، وغـيره يطـول شرحـه » .

– « غريبة شغلة الهبـاش » .

– « لا غريبة ولا قريبة ، فيهـا سـر مهنـة الجزارة والشغل فى السلخانة » .

– « يعنى شغلانة القومسيونجى قريبة ومقبولة وشغلتنا غريبـة ومرفوضـة » .

– « لا أقصـد يا معـلم حـيرم » .

– « يا ملك يا سيدنا الأفنـدى ؟ » .

– « يا ملك .. يا ملك يا معـلم حـيرم ! » .

انشقت الدنيـا أمـام عينى حـيرم على اسـوار السلخانة ، فيهـا عرفت قدمـاه الخطـو واحتفظت أنفـه بروائحها الكريهة النفـاذة – خليط هى من روائح الدم السـاخن والروث المتخلف ورائحـة عنبـر ذبـح الخنازير التى كرهها وحدهـا وان كانت

كلهـا نفـاذة بغيضة ، فالخنزير كرهـه حيـاً ومذبوحاً دون غيره ، حتى كانت لعبـة الرهـان مع الصبية صغيرا .. من فيهم يبيت ليلـة بكاملها داخـل عنبـر ذبـح الخنازير ، دائمـا ما كـان يخسر حـيم الرهـان .

بدا حيم كـاى « هباش » صغيرا ، صبياً يسرق « المسقط » وهى الأجنـة التى لم يكتمـل نموهـا بعـد ، كـذا « الاعدام » وهـو ما يقرر الطبيب اعدامه من أجـزاء الذبائح ، لعلها الذبيحة بأكملها .. كلهـا ، لبيعها فى « سـوق الحتت » المجاور لأسوار السلخانة .

قـد يعاون « بنـات فرنسا » فى القـاء الميـاه على الذبائح فـور ذبحها ، كمـا قـد يعاون فى حمـل الذبائح ونقلهـا ، حتى اذا ما اشتد عـوده وعـرف بقـوة عضده بين اقرانه وبصـوت عـال قـادر على السيطرة ، يحق لـه أن يحتـل عنبرا ويكون لـه خاصـة . لـه ما للهباش من حقـوق الأتـاوة والسيطرة على تجـار اللحـوم والجزارين ، وعليـه ما على الهباش من واجبـات انجـاز العمـل داخـل العنبـر والأهـم مرافقة الطبيب البيطرى ومخادعته قـدر امكـانه ، بمقـدار شطارته بمقـدار ما يتقاضى من التـاجر نقـداً وعينـاً من مقطوعات الكبـد والقلب التى يجمعهـا فى جلبابه المحـكم بحبـل حـول خصره أو بحفظها فى صفيحة لبيعهـا فى سـوق الحتت ايضـاً .

قبـل ان يستوى قـوام حـيره وتبرز قـوته أمضى مراحل الهبـاش طفـلا وصبياً . هـكذا زين حديثه مع القـادم بسـرد الكثـير عن تاريخه الطـويل .

حـيم العضـل الفـارع الطول ، نحيـل الخصـر تعـلو وجهـه ندب جـرح دمـل منـذ زمن ، دومـاً يتمنطق بحـزام أسـود عريض تمـلؤه نتـؤات حديدية لامعـة ، يرتدى نائلة ذات

رقبـة ونصف كـم مع البنطلون الضيق طـوال العـام . صيفاً كـان أم شـتاء .

على غـير توقـع مـال الى اذن يوسف هامسـاً :

« فيـك من يكتـم السـر » ..

طأطـأ القـادم راسـه موافقـاً .

« انـا الآن لا اصلح ، أشرف لى تسليم العنبـر لشـاب فى عمـرك .. وحصـل » ..

صـمت ، كزفكيه ، ضيق مابين جفـونه ، اغمض عينيه ، بعـد فتـرة قصيرة أفـرج جفونه ، مـال اكثـر الى القـادم ، زاعقـاً قـال :

« لكن لزومـاً كل يـوم أزور السلخانة . أقعـد عند بابها . الأطبـاء منعونى من الشـغل . يا خسـارة » ... صـمت ..

تابـع وحـده وكـأنه يحادث نفسـه :

« المشكلة أن كـل سكان المساكن تطالبنى بمـا كنت أقـوم بـه من قبـل .. ومطلوب اكـون جاهـزا على كل حـال ولأى طـارىء » .

كمـا حضر فجـأة ، اختفى فجـأة ، ترك يوسف دهشـاً حـائرا اكثـر ممـا كان !

[٢]

غمـر الليـل محبس يوسف الملقى الى مرقـده مبحلقـاً فى شقوق السقف الخشبى ، انقلب دورة كاملة ، نـام على بطنـه وكفيـه ثم ركـن ذقنـه ... تسـاءل :

« كـم انـا فى حاجـة الى شمعة صغيرة .. جـدا .. » .

المهمات التى سمعها من قبل من خلف الحائل الخشبى لسكان الغرفة الأصلية والتى منها اقتطعوا غرفته ... مازالت .

« انهم احياء خلف الحائل .. ترى ماذا على ان افعل ؟ .. » .

صمت فترة ، حادث نفسه بصوت مسموع هذه المرة :

« ماذا افعل وقد رفضوا فتح بابهم » ..

قرر اخيرا ان يصنع ثقبا فى الحائل الخشبى ، نجح دون ان يثيرهم ، سعد بنجاحه كثيرا ! كانه بذلك الثقب الصغير فتح بابا سحريا . حشر عينه اليمنى ثم اليسرى ، تمنى لو ينجح فى صنع ثقبين لعينيه . ضرب الأرض بكفه ، هالته المفاجأة ، سيدة وثلاث بنات جميلات ، تعلق اكثر بالثقب ، هاله اكثر ان وجدهن ، كل عن نفسها معرض وعن الأخريات .

احداهن تجرش خبزا جافا بصوت مسموع جعله يشعر بالقشعريرة ، ما ان تمضى فترة قصيرة حتى تسرع الى القلة وتشرب بصوت مسموع أيضا . دهش ان لاحظ اربع قلل ولا شىء بين الجدران الأربعة للغرفة الا بعض الملابس القديمة معلقة على الحوائط بعدة مسامير .

اخرى تقلب فى اوراق جريدة واضح انها مستعملة من قبل كلفافة لشىء ما . لم ترفع عينيها عما تقرأ وان اقتربت صغيرتهن « زينب » اكثرهن نشاطا وحركة وجمالا ايضا . فورا عرف اسمها ، بان له الكثير عنها وفيها .

حسنة بارزة الجمال بين نهديها ، جرح حديث اسفل الركبة ، احتقان واضح أعلى فخذها الأيمن دوما تجلس

متربعة على الأرض تركن بكوع ذراعها الأيمن على فخذها فاحتقن .. حتى اذا ما وجدت الفكرة أو الكلمة سجلتها . دهش أن وجدها تمسك ورقة وقلماً وتكتب شعرا . مابين الفينة والفينة تندفع من حالها نحو احداهن تسألها أن تسمع ما كتبت .

« أدفع عمرى كله وأعرف ماذا تكتب تلك الجميلة شعرا ؟! » .

الأم لم يلحظها يوسف ، فقد ارتكنت فى زاوية بعيدة عن مدى رؤية الثقب وكذا الابنة الثالثة الا ما ندر .

وهو ما حدث حالا . وقفت الأم فى منتصف الحجرة ، قالت :

« هؤلاء الأوغاد بالخارج لا علاقة لنا بهم . لن نتعامل معهم » .

ثلاثتهن قلن فى صوت واحد خفيض :

« حاضر » .

صغيرتهن زينب وكما توقع يوسف ابدت تمردا ، علقت بعدها قائلة :

« لن نفتح الا لمن يعرف كلمة السر .. سر المغارة » .

علق يوسف الى نفسه مبتسماً :

« هذه الصغيرة جميلة وشقية ايضاً » ..

ظل يوسف لفترة طويلة معلقا بالثقب ، شاردا ذهولا فيما يرى ..

« أربع أناث وذكر » ..

كررها ، كأنه يسأل نفسه ، ومرة كأنه دهشاً لما

يـرى ، ثالثة تعبيرا عن رفضه واستنكاره ، رغبـة سبقية فلبت حواسـه ونكـره .

عـاد وتأكـد من موطن الجمـال فى كـل منهن . بيـاض هـذه ، قـوام تلك ، صـدر الأخـرى .. وفى كـل جمـال تعلـق بـه !

اخـيرا نـال الاجهـاد منـه غلبـه النعاس . قبـل أن يغفـوا تمـاما ، صـوت عـال مزق كـل الأصوات التى لم ينتبه لهـا من قبـل ، صوت شرخ الهيـاج والضجيج فى الخـارج .. يعـلن :

« حـيرم سـقط ، حـيرم العضـل سـقط
عـلى ظهـره يا اهـل المسـاكن ... »

القســـــم الثــــانى

اطـــــول ايــــام الخــــريف

التيـــه

نـــال الاجهاد من يوسف .. فغفا . ظلمة محبسه ليلة الأمس التقمته عنـوة ، لفظته فجـأة فى فجـر اليـوم الجديد . دعـك عينيه كـأنه ما غفى ولا نـام ، عض كـلوة يـده اليسرى ، استلقى على بطنـه ، ضرب جبهته فى المرقد الصلد ، تشـاعب أتيـاه صوت المؤذن واهنـاً ، الا أنـه واضح أيضـاً .

ــ الفجـــر ــ

الجب ثانيــة !

ما هــذا الذى يحتوينى ، التجاعيد احتلت سحنتى ، رائحـة الأمونيـا احتوت رئتى ، الهواجس سيطرت على راسى ؟ .

آه ، تذكـرت مقولتك ياعـم يعقـوب وانت تفسر لى تلك التجاعيد الغريبة على من هـم فى مثـل سنى ، قـلت :

« يابنى وانت تحت الأنقاض ، وانت معنـا فى الطابونة .. منتبـه لنفسك ، واع بنفسك . مصيبة فى زمننـا أن تكون فاهم .. فاهمنى » .

الآن فقـط بدات أفهمـك ياعـم يعقـوب .

التفت يوسف متـأملا السقف ، التقـط خيـوط العنكبوت تصنع شباكاً خبيثـة ، لمـح فيهـا ذبابة تحـاول الخـلاص ، حشرة العنكبوت تصـعد بخفـة وثقـة الى الذبابة وكأنها تعـدو فى الفـراغ ، لمـح آخـر ضربتين متتاليتين بطيئتـين واهنتـين لجناحيها .. هيهـات . ادار وجهـه قبـل أن تحسـم المعركة .

أنفــه مازالت تلتقط روائــح نفــايات العــالم ، عاودته عــادة النفــر ، لعــله ينجــح فى طــرد تلك الروائح الغــازية . اكتسبها عــادة .. أن ينفــر ويلهث . اخــيرا تاكــد أن محبسه ملاصــق للمرحاض المشترك لــكل قاطنى المساكن ، لــكل عــابر سبيل .

اذنــاه بدأت تنتبــه سريعاً ، سمع همســاً ، همهمة وتمتمة فى مثــل هــذه الســاعة البــاكرة . نجحت انفــه أن يسرقه من عينيــه وقبضــة العنكبوت على الذبابة .

يفضــل النســوة تلك الســاعة حتى اذا ما خــرج رجالهن الى العمــل يعــدن ثانيــة .

خــال نفســه يرتدى مســوح القساوسة ، وجــد الآخرين يعترفون بين يديــه فى حديث لم ينقطــع ، يأتيــه من خلف جدران المرحــاض الملاصق لمحبسه . لعــله المبنى الوحيــد المجهــز بالصرف الصــحى المشيد بالطــوب الأحمــر والأسمنت على خلاف المساكن المبنيــة بالواح الأخشاب المتلاصقة ، همس الى نفسه :

« مالى أسمعهن فى حديث لا ينقطع ، انهن يتعمدن الاعتراف »

.. احداهن لاخــرى :

ــ : علمت ياخــتى ؟

ــ : خــير ..

ــ : حــيرم العضــل ، المجــدع ، جــرى لــه ما جــرى .

: ما جــرى ؟

ــ : وقــع ، ســقط على الأرض .

: على الأرض !

ــ : وأم وردة فوقــه .

: معقــول .

ـ : الظـاهر انك فى دنيـا ثانية يا حـظ .

: لا ثانيـة ولا ثالثـة .

ـ : قـالوا وصـفة جـديدة من العطـار هى السـر فى ضـوة المعلمة أم وردة الدلالة . قـالوا ان حـيرم نفسـه مكسورة ، وقـالوا بقصـد ليرتاح من طلبـات اهـل المساكن .. ما يقدر على القـدرة غـير ربنـا ، الرجـل شعره ابيض والرعشـة لبدت فى جسـمه .

: وبعـدين ؟ .

ـ : خرجت الجدعـان ، لم يجـدوه .

: ناويين يسيبوه ، العيشـة من غـيره تخـوف .

ـ : ياختى ، يهمنـا حالنـا يا ام خليـل .

: بطنك كلهـا كـلام يا ام عنتـر .. خـير قـولى لى ؟ .

ـ : مصـيبة ، مصـيبة فى بيتى .

: بعـد الشـر .

ـ : ابـو عنتـر قطـع الخلف ، الليلة كانت ليلـة سـوداء ، حـاول معى ، لم يقـدر .. عـرق ومسكته الرعشـة ، سبنى وسـب اجـدادى .. وانـا مـالى !

: حـق حصـل ؟ ، يا حبيبتى ، انت صـبية وعفيـة ولك على الدنيـا بقيـة .

ـ : الفـكر هـده من يـوم ما المحـل اكلته النـار .

: اسمعى .. عليـك بأم وردة ، عندها الخـلاص وناصحة ، قـادرة ومخـاوية . لولا انهـا مخـاوية كانت قـدرت على المعـلم حـيرم العضـل ! .

صمتا معاً .

تململ يوسف فوق مرقده . تثاءب ، تمتم : « لا يهم » .

انتبه ثانية عنوة . تأكد انها مشاجرة بين اثنتين ـ ام عنتر وام خليل ـ مع اخرى . سمع معهن صوت الشيخ طه المستفسر عن سبب المشاجرة .

لاحقته ام خليل قائلة :

« أم عنتر فى ضيقة والبنت تفيدة تدخلت فى حديثنا الخصوصى والحقيقة هى لا تفهم فى الأصول ولا تعرف الذوق . والله الواحدة مننا محرجة تتكلم يا شيخ طه » .

« تكلمى ، تكلمى » . .

« تفيدة تقصد تغيظ ام عنتر ، اصل الحكاية ان (أبو عنتر) بعافية ومزعل أم عنتر . . فاهمنى ؟ حكت الحكاية وهى تبكى ، تقوم تفيدة تقول لها ـ خلصى ، أنا بدى ادخل الحمام ، الليلة الرجل بتاعى . . . وضحكت ضحكة تفهمها الستات ، بصراحة أم عنتر زعلت ، شدتها من شعرها ، ثم انخفض صوتها :

« الحقيقة تفيدة الود ودها تغيظ أم عنتر » .

انفجر الشيخ طه غاضباً ، صائحاً فيهن :

« النسوان تخرج حالا من الحمام ، نلحق صلاة الفجر ، الفجر يافجرة . والله ، والله فى علاه سكن المقابر ارحم » .

التوى يوسف مبتسماً ، متمتماً : « وايضا لا يهم ! » .

ـ المعترض ـ

لم يهدأ الضجيج الا قليلا . ثانية سمع صوتهن :

« اخرجنـا الشيخ طـه ، من غـيره يصلى الفجـر ؟! » .

« حـرام عليك ، المعـلم عجـور الكـداب ، وعلى عجـوة وكان ربنـا يرجعـه بالسلامة المعـلم حـيرم » .

ضـحكت الأولى سـاخرة :

« الصـلاة من غـير وضوء ، لم يدخـل الا على عجـوة .. مسـح ! » .

صمتن قليـلا حتى سـمع همسا حواريا بين اثنتين :

ـ : .... اشـتغل مـع ....

: يا مصـيبتى .

ـ ـ متـأكدة .... ضربنى والضرب معـلم على ظهـرى .

: حـاولى ، قـولى لـه فـكر ....

ـ : سـألته .

: سـونة .... مع سـونة الراقصة المومس ؟!

ـ : زارتنـا ... و ... بعدهـا طلبت ...

: ... قـولى بلطجى معهـا ..

ـ : اسمعى ، كلمى ام وردة ، من بعـد المعـلم حـيرم ما يسـد مكانه الا « ام وردة » تشـوف لك شـوفة .

اختفى الهمس بين صراخ تفيـدة ، سالوها ، قـالت :

« أنـا لمحت عينـه ، رافع تالب طـوب من الحمام ويبص . كانت بتلمـع ، ولا عيون الحنش ، والله العظيم رجـل فى الحمـام بيبص على النسـوان » .

نجحت النسـوة فى القبض عليـه . « على عجـوة » تكور

على نفسه ، عليه يجمى رابسه وقفاه ، انهلن عليه ركلا وضربا ، لم يتأوه . ما ان تأكد الشيخ طه المتابع صامتا متبلدا ... اخيرا نطقها ، ردد الجملة الشهيرة ثم قال :

« ولا اشوفك فى المساكن من الليلة » .

علت الاصوات باللعنة على ذلك الشاب الذى يعمل حمالا فى محطة سكك حديد مصر .

ابتسم يوسف ، قال لاذنيه :

« يبدو أننى سأقول لا شىء يهم كثيرا .. جدا » .

— الأشعار —

ارتطمت عينا يوسف بالحائل الخشبى ، بالثقب . الصق عينه اليمنى ثم اليسرى ثم اذنيه . لمح الام ، سيدة فى الخمسين من العمر أو تزيد ، تحمل البقايا .. بقايا الجمال الذى كان ، والبسمة الخفية الغامضة ، والملابس البالية التى كانت يوما مشرقة وجديدة ، لا تشى بثراء صاحبتها وان افضت باستقرارها .. أيام أن كانت زوجة رئيس قسم حسابات باحدى الوزارات ، تستقبله عائدا اليها مصرا أن يقبلها بين عينيها ، تقول له :

« لا تقبلنى هاهنا » ..

يضحك ويصر على فعلته ، حتى انجب ثلاث بنات ، حتى فقدته بعد مرض عضال نال منه الصحة والقوة ومن بيتهما المال والاستقرار على قلة ما ادخراه من راتبه الحكومى ، وحتى كان الحكم بطردهم بعد أن نجح صاحب المنزل استصدار حكم بأن منزله آيل للسقوط ، نفذت الشرطة افراغه من اهله زورا وشيد على ارضه برج ليس لها ولا لبناتها مكان بين جدرانه . لم تجد ما يسترهن الا مساكن الايواء ،

فعاشت بين سكانها غريبة عنهم رافضة لهم مع بناتها بحزم وقسوة مبالغا فيها خشية ان يختلطوا بأهلها بعد أن تحطم بقايا حلم ، به تابعت الأيام عنادا ومكابرة بعد وفاة زوجها الذى كان مرشحا لدرجة المدير العام .

الصق أذنه ، سمعها تقول :

« ندخل المراحيض من غير نفس ، لا تحية ولا كلمة واحدة » .

كلهن نطقن :

« حاضر » .

الا زينب قالت :

« سوف نهز رقابنا ونبتسم .. ممكن ؟! » .

رمقتها الأم ، ساقتهن امامها الى خارج الحجرة ، اختفت الواحدة تلو الاخرى ، كانه طابور الصباح فى مدرسة .

السيدات استقبلن الأم وبناتها بضجيج زاعق — ساخرا احتجاجا على غطرسة السيدة وتعاليها عليهن . ماكان منها الا الصمت ، ما ان عادت الى الحجرة صرخت بانفعال قائلة :

« ملعون أبو الزمن ، ملعون أبو الزمن » ..

— النذور —

أوى يوسف الى نفسه فهام فوق محبسه وأبعد من زمانه . امتطى خياله سبيلا وبعقله يتذكر ويفحص . ذات مرة قالت أمه له :

« لفترة طويلة ياولدى اعتلتك ملامح الرعب والكرب » .

« كيف يا أمى ؟ » .

« بموت جدتك ، أثناء موتها وبعده ! كانت تلاعبك كعادتها ، تقذفك الى أعلى فيتملكك الرعب ، تعود وتتلقفك بين راحتيها وعلى صدرها فتعلو صرخات ضحكك » .

الا مــرة واحدة واخيرة قذفتك الى اعلى ، فارتعبت يامسكين ولم تتلقفك .. ماتت . قــالوا سكتة قلبيــة ، قالوا الشــلل اودى بحياتها ، لكنهــا تركتك وقــد باتت ملامح الرعب والكــرب ســمة من سيماء وجهــك .

عندما دخــلت المدرسة أردت ان تعــدو تحت المطر وفعلت ، تابعتك عاملــة المدرسة بصوتها العــالى وجسدها الوافــر ، لم تسعفها قدماها ، سقطت وكسرت .. ظلت تــردد : ابعدوه ، ابعــدوه .. النحس .

بعدهــا طوتنى امى بذراعيها ، مسحت بشرتى الباردة بدفء شفتيها حتى نمــت على كتفهــا . تعلمت منــذ ذلك التاريخ البعيد أن ذاك الكتف وتلك الشــفاة لأمى .. الملجــأ المــلاذ .

الآن .. مــاذا هنــاك بالضبط ؟ هــل ضاقت الدنيــا على سعتها ؟ . مســاكن الايــواء مزدحمة ، لم يجــدن الا المرحاض مكاناً لحــديث لا ينقطــع ! .

الآن .. مــاذا على ان افعــل ؟ لقــد اصــبح لى هــوية ومسكن ، على أن افــكر فى الأمــر مليــاً .

دعــا ربــه أن يستطيع النــوم والبقــاء فى سكون وسكينة ولو ليــوم واحــد ، بعــده يفعل بــه الله ما يشــاء ! .

حــاول يوســف النــوم ، فشــل ، وجــد فى متابعة الهياج المقذوف الى اذنيــه فرصــة أن يسرى عن نفســه ، ســمع :

« طفلــة ولا القمــر » ، « فى اذنيهــا حــلق ذهب » ، « كان المساكن ناقصــة طفلــة ؟ » .

انتبــه اكثــر ، تأكــد انهــم عثــروا على طفلة .. وجدوها نائمــة بين طرقات المســاكن .

اطـل عليهـم من الطـاقة ، لمـح الشيخ طـه يفض ظرفاً وجـدوه داخـل ملابس الطفلة ، قـرأ الرسالة المرفقة بصـوت عـال :

« يا اهـل الخـير ، يا عبـاد الله .. اعذرونى . فعلت ذلك لاننى لم اقـدر على قتلهـا .. الأب ، أبو فاطمـة » .

سرعان ما اختلفوا فيمـا بينهم .. هـل الطفلة اسـمها فاطمـة ، ام هـذا لقب الرجـل ، وفاطمـة تلك شقيقتها الكبرى والابنـة البـكر للرجـل .

ابتسم يوسف ، عـاد الى مرقده ، هـذه المـرة لم ينطق مقولته : « لا شيء يهـم . قـال بانفعال وقـلق : يا نهـار اسود اب يـرمى ابنتـه ! » .

ـ الضـحى ـ

بلـغ مطلـع الشمس مبلغـاً ، تسـاءل يوسـف :

« لمـاذا ؟؟ » .

خـال نفسـه علامـة استفهام كبـيرة ، بطـول طـوله وعـرض عرضـه .

« يبدو ان بعض رجـال هذه المساكن لا يستيقظون باكرا » .

تعـرف على صـوت ام وردة من بين الأصوات المقذوفة الى اذنيـه . نهض مسرعاً يلقى نظـرة عليهـا ، وجدهـا منتصبة وسط حلقـة من رجال المساكن ، فى العقد الرابـع من العمـر ، عيناها الحـور احاطتها بكحـل اسـود فازدادتا جمالا ، شعرها الطـويل مصبوغ بالحنـة الحمـراء وقـد تركته على كتفيها ناعماً مستقرا اكسبها ثقـة مع صوتها العـالى الواضح القـوى الواثق ايضـاً ، بدت خفيفة الحـركة باليـد والحاجب ، سريعة التفكير ، وقفت تقـص ما كان بينهـا وبين حـريم العضل ، قالت :

« حيرم المعضل يقــول لى ابعدى عن طريقى .. انا المعلم حيرم »

قلت لــه : « كان زمــان ، الدنيــا تغيرت ، انــا أم وردة ، المعلمــة أم وردة » .

يضحك ويقول : « الدلالة » ، « يقصد يهــزأ كرامتى » ..

اقــول لــكم الحق الدم غــلى فى عروقى ، زاد وطــين انــه قــال : « بضاعتك خــرق قديمة وأجهــزة فاســدة » .

قاطعوها : « ابــدا كانت عــال العــال » ، « عقبــال كل مــرة يا معلمــة » .

تجــرأ احدهم قــائلا : « لكن يا معلمــة الســعر عــــالى والنــاس غــلابة » ..

بانفعــال الحقته قــائلة : «بالتقسيط يا عمــر » ..

ما كان اســمه عمــر ، كــان الشيخ طــه ! بهــدوء وانفعال مكتــوم خــرج الرجــل من الدائــرة ، ذهب . تابعــه أبو عنتــر يطيب خاطــره ثم عــاد اليهــا قــائلا :

« خفى على الشيخ يا معلمة ، الشيخ طــه شيبة وهيبــة ».
عــلا صوتها اكثــر ، قــالت :
« كان يدفــع آخــر قسط عليــه » .
فجــاة التصق بهــا حسن لا لا مهلــلا :
« معــك حــق يا معلمة ، ربنــا لا يحرمنا منــك ولا مــن بضــاعتك » ..

لاحقــه آخــر : « عمرنا ما ننسى انك ذوقتينا اللبان بالنعناع وبالعسل الأبيض ، والشيكولاتة المحشــوة بنــدق .. كنــا نحلى بهــا ! » .

حــالا عــرف يوسف انــه « المعــلم عجــور الكداب » . اسمه « عجــور » . اهــل المساكن لقبــوه بالمعــلم من فــرط

حرصـه على مظهـره وهندامه ومن حديثه وصـفوه بالكـذاب ايضـا . الرجـل طويل القـامة ، منمق الهندام والشارب دوماً ، نظيف الجلباب ، لامـع الحـذاء ، حول رقبته على مـدار السنة لاسـة لامعـة ، تعـلوه قلنسوة سـوداء بنية تميـل قليلاً الى حاجبه الأيمن . امـا صـفة الكذاب فلأنه دومـاً يبالغ فى وصـفه للأحـداث والاخبـار ويضيف عليهـا .

بعـد فتـرة صمت تابعت أم وردة قائلة وهى تمـر براحـة يدهـا على شعرها النـاعم الطـويل :

« على الله يتمـر فيكم . عمومـاً ميعـاد السفرية الجديدة لبور سعيد قـرب ، انـا جاهزة لكافة شيء ، وبالمناسبة أجلت الديـون القديمة لشـهر قـادم » .

قالتهـا وذهبت ، الرجـال على حالهم فى صـمت ، ما أن اختفت عنهـم تمـاماً سمعهم يوسف يقولون : « لن ندفـع » .

« ياغبى لا تقـل هـذا حتى تستمر فى اعطائنا ما نطلب » .

« انهـا تطالبنا بأضعاف ثمن الملابس المستعملة الـ .. » .

« نحن فقـراء ، لكن واجب علينـا نوافقها على كل كلمـة منهـا أو تسكت ، كاننـا لا نفهـم ولا فاهمين لعبتهـا » .

حسـم « حسـن لا لا » ذلك الحـوار وهـو يمسح الريـم الأبيض حـول زاويتى فمـه .. « الخلاصة من مصلحتها تبيـع لنـا ، ومن مصلحتها نشترى ونسـدد على مزاجنـا » .

رد المعـلم عجـور الكذاب قـائلا :

« قطـة وفـار .. تقصـد قطـة وفئـران » .

ابـو عنتـر معترضاً قـال وهـو يدير وجهـه :

« اصبحنا فئـران يا اهـل المساكن .. لا حـول ولا قـوة الا بالله ، لا حـول ولا قـوة الا بالله » .

حـالا سـمع صوتاً قريبا ، قريبا جـدا ، اعـلى راسه ، قلص عضلات قفـاه ، ارتفعت ذقنـه ، رفـع حاجبيه ، اتسعت كـرتى عينيـه ، بحلق جيـدا فى الوجـه المطـل من الطـاقة ، انتفض واقفـاً ..

« لا تفـزع انـا حسـن لا لا » .

« مـاذا تريـد ؟ » .

« أتعـرف عليـك ، كنت فى مولد السيدة عائشة .. بركاتك يا سـت ، مـدد » ..

تأملـه يوسف ، لسـان حـاله يسـأل :

« هـذا الرجـل لا يبـدو عليـه الصـلاح والتقـوى .. لعلـه كـذلك ! » .

تأملـه جيـدا . سحنته حرقتهـا الشمس ، ريـم ابيض حـول زاويتى الفـم ، ترسبات فى زاويتى العينين المدغمستين ، شـعر مشعث ، لحيـة متربـة ، سحنة حسـن لالا سرقته من متابعة الحـديث الذى بـدأ ولم ينتبـه لـه ، قـال حسـن :

« ... ، المصيبة ان المـيراث كله عند ولاد عمى ، واصبحت انـا نطفـة الفقـر والحاجة ، وهـم نطفـة العـز والهنـاء وفى الأصـل لصـقوا خـاتم ابويا على مبيعـه وهميـة لهـم .. » .

ثانية شـرد يوسف منـه ، تابـع حسن وحـده :

« نادى على باسمى ، لا تقـل يا اعـرج ، واضح انـك متعـلم ، اتفقنـا » .

« اتفقنـا يا حسـن » .

على غـير توقـع اندفع حسـن الى الداخل باكثـر من نصف

جسـده ، ما عـاد يوسف يدهش ، فقـط انتظـر الخطـوة التاليـة ، الحـديث الجـديد :

« حجـرة ام وردة الدلالـة ملآنة بالأقمشة والأجهزة وشرائط الكاسيت . حجـرة ام عنتـر دائماً قـذرة وتقـرف . المعـلم عجـور الكـذاب ليس كمـا يقولون عنـه .. لا وارث ولا حيلته ابيض ولا أسـود » .

انخفض صـوته اكثـر وقـال :

« حجرة جيرانك خاوية الا من العنكبوت ، لا سرير ولا صندوق اسـود .. تصـدق ؟ » .

عـاد الى سـابق وقفته ، لا يبـدو منـه الا راسه ، قال :

« نكمـل مـرة اخـرى ... سـلام » ..

تابعـه يوسف ، تاكـد ، حسـن لالا بخطواته القصـيرة يسرع نحـو جمـاعة منهـم ، عـلا صوتهم ، اختلفوا فيمـا بينهم فى مسـالة البنت التي عثـروا عليهـا فى المسـاكن .

« انـا لا ادخـل اقسام الشرطة ولـو على رقبتى » .

« انا مطلوب للتحقيق فى موضوع قديم ، أروح لهم بنفسى » .

« دخلته ظالمـاً أو مظلوماً اخـرج وقفـاى احمـر ووارم » .

رفضوا اقتـراح الشيخ طـه بتسليم البنت للشرطة . لـم ينتهـوا الى راى ، شـعر أن موضـوع تلك الطفلة شغله اكثـر من اللازم وبلا رغبـة همس الى نفسـه :

« لا يهـم ، حتى تلك الطفلـة المسكينة لا يهمنى أمرهـا ، اكيـد لا يهمنى أمرهـا » ..

تاكـد لـه انـه يفكر بطريقة غير مجدية ، شعر بالارهاق ، غلبـه النعـاس . حـاول النـوم .

افى رأس يوسف وهـم أم حقيقة . هـذا ما حـدث ... دخلت عليـه وكأنهـا المسرح بعطرها الخـاص الذى يعرفها بـه ويعرفه بهـا . اتسـع محبسه ، بات بلا جـدران ..

« امـل .. حبيبتى ، اهـلا بك . كيف عرفت مكانى هـذه المـرة ؟ » ...... لا رد .

« آسـف لم استقبلك وانـا فى الطابونة . الآن لا ادرى ماذا اقـول لك آسـفاً على ما سلف وامـلا فيمـا هـو آت . ولكننى سعيد . اريد البـكاء بين يديك واشكو لأذنيك » ..... صمت .

« غاضبة مـنى ، اعتـذر ؟ ..

دعينى احتفى بك .. نشرب شايا ، ما رايك » ..

حـاول ، ارتطـم بالحائل الخشبى ، لعـن أيامه قـائلا فى دهشـــة :

.. « اكـان وهمـا ، احـلم وانـا مفتوح العينين » .

وجـدت فى التذكر متعـة هاهنـا داخـل المحبس . حبيبتى « امـل » لم تكن رائعـة الجمـال كانت مشرقة دومـا ، لبقـة الحديث لأربـع سنوات عشتها معهـا فى دراسـة الآداب قسـم الفلسفة وفى حـوار لم ينقطـع داخـل اسوار الجامعة وفى دار الكتب وكذلك على شـاطىء النيـل وفى حديقة الأورمان . كانت من عادتنـا معـا ان نتناقش فيمـا قرانا ، ولأنهـا ابنـة احـد اصحاب المكتبات الكبـيرة فى شـارع الشواربى كانت تحضر معها بعض الكتب والمطبوعات النـادرة امـا المصادرة وامـا مهـربه من الخـارج .

لم نتشاجر طـوال تلك الفتـرة الا حـول تلك المطبوعات ،

مثلما حدث مع قصيدة [هوامش على دفتر النكسة] ..
يومها قلت لها :

« لا تنسى أن نزار نفسه هو الذى كتب القصيدة (السيد مات) فى موت عبد الناصر » ..

« ان ما قاله فى القصيدتين كان تعبيرا صادقا عن مشاعر كل العرب .. وقتها » ..

« مهما كانت مشاعره ، الشاعر ليس ببغاء ، أى شاعر صاحب قضية يجب ان يحمل قلمه أو شعلته حتى ينير لنا الطريق ، لا ليزدنا كرها لأنفسنا » .

« كان صادقا .. هكذا الصدق » .

« ولو ، للشاعر دوره الذى يجب أن تسقط امامه اية مشاعر طارئة . يجب أن يستقرىء لنا التاريخ ويرشدنا الى الطريق الصواب » .

« انك تتكلم الآن بعد انقضاء المؤثر ، بل بعد أن عبرنا وحاربنا فى ٧٣ وقتها كان الموقف مختلفا » .

« وفى هذه النقطة بالذات يجب الا يختلف الشعراء » .

يومها اختلفنا ولم نتصالح الا فى صباح اليوم التالى .

ـ الزوال ـ

همس جيرلن الغرفة جذبه الى الثقب . دغدغته وخزات الحرمان الشبقية وهن شبه عرايا حاسرات الأفخاذ ، نافرات النهود قال لأذنيه :

« ان ما يرتدنه يكشف عن اجسادهن اكثر مما يستر » .
كل هؤلاء الاناث خلف الحائل وانا الذكر هاهنا وحدى .
ملعونة الحوائط وموانع العالم كله .. ملعونة » .

اندفــع مسرعــا الى المرحاض ، القى راســه تحت رشاش المـيــاه البــاردة • عــاد • جلس فــوق مرقــده الصلد ، استند بظهــره على جــداره الخشبى الدافىء ارتكن براسه ، وضــع ذقنه فــوق ركبتيه وقــد جــذب ساقية الى فخذيه الى بطنه احاطهــا جميعــا بذراعيه ، عقــد كفيــه أمــام ساقيه . رشــق عينيه فى الثقب ، زام ، غمغــم .

عشــت عمــرى داخــل الجدران المثقوبة . عبد الواحــد المنسى الذى هــو ابى لم يتــرك لى فرصــة الاختيار والخطــا كما الأطفــال جميعــا والصبية جميعــا والشباب . حرمت طيلة حياتى من متعــة المخاطرة ومن النجــاح بعــد فشــل . كان الرجــل بن الحرص والاحتراص بحيث لم يعطنى فرصة واحــدة من المحاولة . دومــا يتهمنى قــائلا :

« اظــن انك لــن تقــدر على الانجــاز » ..

فسرتها أمى سكينة غريبة قــائلة :

« انــه يحبــك لــذا يخــاف عليــك » ..

« انــه يحــرص على الا تتعــرض للأذى » .

وقتهــا لم اقتنــع وحتى الآن .

صادقت فى طفولتى اطفــالا من اختياره هــو ، لعبت معهم وكنت اضربهم . كــان يحــرص ان اكــون أكبــر من كل الأطفــال الذين يحضرهم لالعب معهــم . نلعب لعبــة العسكر والحرامية ، يأمرنى دائمــا اكــون الضابط حتى انــه اشــترى لى مسدسا كبــيرا ، نادرا ما يشترى اللعب ، فعلهــا لأننى الضــابط .

احسست باغتلاظ صوتى ، وبــروز الشــعر فى جسدى ، وبأمــور لم افهمهــا • فهمهــا هــو وحده ، بعدهــا حرمنى .. من متعــة الاستحمام وباب الحمــام محــكم الغلق ومن لعبــة قص

صــور الفتيــات الجميلات من الكتب او المجلات ومن الحديث الى انثى من صبايا الجــيران فى المنــزل والحــارة .

عندما التحقت بكليــة الآداب ، امرنى أن اصــلى الصلوات الخمس فى مواقيتها ، وافقته . اذا عــدت بعــد انقضاء اليــوم الدراسى الطــويل . يسألنى .. هــل فعلت ؟ « نعــم حــدث » . اقولها بلا تفكــير والحقيقة عكس ذلك .. لم افعــل وحتى لا أكون كــاذبا .. لا أصليها قضــاء أيضــاً !

نجــح معى فى كــل ما أراد ، كان يعبث فى كتبى ودفاترى بحثاً عن شىء مــا ، لا اعلمه ، ظــن اننى صفحة بيضاء لــه وحــده الحق فى الخــط عليهــا ، كمــا ظــن بنجاح كــل أفكاره معى ، فيمــا عــدا « السنمكة » رفضت تناولها رفضــاً قاطعاً ، فشلت كــل محاولاته الارهابية والاقناعية . الحقيقة فشــل الرجل معى فى امــور كثــيرة .

تعلمت التدخين بانتظام خــارج البيت وشراء اللبان لاخفــاء روائــح فمى وانفى . شاهدت المجــلات الجنسية وضممتها الى خبرتى السابقة التى لا يستطيع أن يتلصص عليهــا . لم أعــد اصــلى الا فى حضــوره .

عندما اكتشف ما ينمــو فى الأثــير بينى وبين امــل ، الشىء الوحيــد الذى نشلت فى كتمانه رغــم حــرصى على ذلك .. فهــم الرجــل الذكى . ســأل عنهــا وعن ابيهــا . ذهب الى الرجــل فى مكتبته . تعارفا بل كــانا على عــلاقة وطيدة من قبــل . معــاً اشتركا فى خــلايا ونشاطات الاخــوان المسلمين قبل قيام الثورة . معــاً اعتقــلا ــ عاشــا تجربة رفــض ابى الكشف عنهــا وعن تفاصيلها ــ بعــد قيــام الثــورة .

بســبب الأب الذى اكتشف معرفته لــه اكتفى بالتحذير :

« احذرك الانشغال بهـا ... احـذرك ... » .

ـ الدلـــوك ـ

رغـب يوسف فى شىء يفعله .. اى شىء . لمـح ورقـة جـريدة مكورة امـام باب محبسه ، تذكر انـه لم يقرا جريدة منـذ شـهور بعيـدة ..

« تـرى مـاذا فى الدنيـا الآن ؟ » .

قالهـا واندفـع يلحـق بالورقـة قبـل ان يجذبها الهـواء بعيـدا ، بـدأ يقـرا ...

« حكومة روديسيا تهـدد رجـال الدين » .

سحب عينيـه الى موضوع آخـر .. « الانتماء لفـرق كـرة القـدم ظاهـرة سياسية » ، ابتسم وهـو يتـابع قراءة المقـال القصـير . انتبـه على عنوان شغل ربـع الصفحة .. « سؤال : الشـقة للزوجة المطلقة أم للـزوج » ؟

ضـحك ، قال : « الحمـد لله ، لا املك شـقة ولا زوجة ». عـاد ونظـر الى اعـلا الصفحة ، « افتتـاح مصـانع جـديدة لصناعة اللبـان والشيكولاتة » ، هـز راسـه فى عصبية . عـاد وقـرا الخبـر القصيرة مـرة اخـرى . شـعر بتقلص معدته ؛ الحموضة اشعلت نـارا فى فمـه . تذكـر مناقشته مع امـل ذات مـرة حـول احصائية مفداهـا ـ الف مليون شخص يموتون جوعا خـلال خمسة وعشرين سـنة فى بلدان العـالم .

القى بالورقة ، لمـح خبـرا : « الجـو مائل الى البـرودة اليـوم » . عـاد وقبض على الورقة ، سرقه عنـوان : « ظاهرة اختفـاء البنـات .. لهـا دلالـة » . تذكـر الطفلة التي وجدوها بين طرقـات المساكن . همـس :

« تـرى مـاذا فعلوا معهـا وبهـا ؟ » .

رغب ان يسرى عن نفسه ، كور الورقة ، صنع منها كرة ، بدأ يقذفها بقدمه فلا تتقدم خطوة واحدة ، مل اللعبة ، عاد الى صورته الاولى . قال بصوت عال :

« أف » ..

ـ العصر / الأصيل ـ

الصوت العالى يقترب من اذنى يوسف . « اهرام ، اخبار ، جمهورية » . يكررها منغمة وكأنه يغنى ، الصوت يصنع الضجيج التقليدى لـ « فهمى المشد » بائع الصحف والمجلات واحد معالم المساكن ، له مع أهلها حكايات كثيرة ، يرددونها فى السامر المسائى ، الليلى وما بعد منتصف الليل .

من تقاليد المساكن جلسات السمر التى بلا بداية ولا نهاية ، وفى كل فترة من الفترات من ليل أو نهار لها خصائصها ، ناسها وحكاويها ايضاً . سمر النهار غالباً فى بناية المرحاض . سمر المساء الباكر غالباً ما يكون امام الأبواب وقوفاً او جلوسا وحول الشيخ طه يقرأ لهم الكف ، ويفتح المندل ويبيع لهم الأحجبة وقصار السور القرآنية مطبوعة ، كذلك بعض العطور الزيتية وعصى السواك والخلة .. يرصها فوق طاولة خشبية مستطيلة الشكل يجلس على صخرة كبيرة امامها ، اعلاه علق قطعة من القماش تظلل عليه وعلى من يجلس بجواره ـ مثبتة فى احدى الجدران الخشبية وطرفاها الأخرى فى عصى طويلة الى الارض . على ضالة ما يربح او هكذا يستنتج الناظر الى تلك الطولة الخشبية ، الليل الأولى فى شقة المعلمة ام وردة والمعلم حريم من قبل . أما سمر ما بعد منتصف الليل ، دنيا اخرى معبأة بالمخدر .. روائح الحشيش ، السبرتو الأحمر المخلوط بالمشروبات الغازية ـ الكوكاكولا ـ العسل المخمر ـ البوظا . لكل اهله وناسه

وجلسته . كثيرا ما تمتلىء الطرقات فى تلك الساعات من الليل بالغرباء ووجوه لا تظهر الا فى حينها . لعل منهم اللصوص ، وطريد الشرطة ، منهم ايضاً حرفيون راجت فى اياديهم أموال كثيرة ، وما كانوا كذلك خلال السنوات السابقة وهو ما اكده « فهمى المشد » ليوسف فيما بعد . ولأن فهمى كثير الكلام ، فيلسوف المساكن ومحللها السياسى الصقوا باسمه لقب « ابو كلام » . الآن يقدم نفسه الى يوسف قائلا :

« فهمى أبو كلام وصاحبنا حسن الأعرج .. حضرت للتعرف عليك .. اهلا بك » ..

لم يتمتم يوسف كثيرا . قال :

« ظننتكما شمروخ ، وحده .. يدخل ويخرج دون اذن ولا طلب ، وانا يوسف عبد الواحد المنسى ! » .

بصوت خفيض ، تمتم ابو كلام وكأنه يحادث نفسه :

« هل هذا الذى أرى حقيقة .. ممكن ؟ » .

معقول ! السحنة واحدة ، الدم واحد .. حتى الصوت والايماءة ؟ » ..

جلس يوسف على حافة مرقده مرحباً بالزائرين ، مشيرا الى مرقده ان يجلسا بجواره . لم ينتظر حسن لالا او الأعرج كثيرا . فورا لاحقه :

« تسمع حكايتى ؟ » ..

ابتسم ابو كلام ، ازاح الاعرج وهو يلكزه فى كتفه :

« حفظناها ، حرام عليك ، زهقتنا منك ومنها » .

حسن الاعرج تابع كأنه ما سمع شيئاً :

« عمى الأكبر ضربته سيارة ، تجمع الناس حواليه ،

قالوا له (المستشفى) رفض ، تعرف لماذا رفض ؟ » .

« لا » !

« عمى الآخر مات وهو فى عز فرحته ، ليلة زواج ابنته الوحيدة ، من طلق نار طايش .. ابدا ما كان طائش .. تعرف لماذا ؟ » .

« لا » !

« اقول لك انا . هو عقاب ربنا . الاثنان اكلا اموال ابى . سرقوا حقه فى الميراث ، بصم لهم على ورق بيع صورى ، ضحكوا عليه وكنت انا النطفة النجسة واصبحت من صلبه الملعون » .

مازال ابو كلام صامتاً ، صمت غير عادى ، تارة بضرب كف على كف ، مرة يتمتم : « لا حول ولا قوة الا بالله » . ومرة يزعق : « سبحان الله » ..

انتفض فجأة ، تعلق برقبة يوسف الذهول الدهش :

« الخالق الناطق صابر ، صابر عبد الواحد المنسى » .

« هل تعرفه ؟ » .

« لما كبرت اصبحت نسخة منه يا يوسف » .

« ولو ان امى قالت لى ذلك ، ما كنت اظن اننى كذلك » .

« لا أنساه ، انا فهمى المشد ، صديق صابر ، منذ اول يوم فى التجنيد عشنا معاً ، تجاذبنا ، عشنا معاً فى معسكر التدريب وفى الوحدة القتالية . سافرنا الى اليمن معاً وحاربنا ، عدنا وشاركنا فى حرب ٦٧ معاً . لم نفترق الا اثناء حرب ٦٧ وحتى اليوم » .

قاطعه الأعرج قائلا :

« اشعلوا السجائر وانا اسمع » .

ثلاثتهم أشعلوا السجائر والأعرج يتمتم بجملته الاثيرة :

« ياللى ما تعرف بكرة ، افتكر امبارح » .. كررها .

بهدوء المترقب طلب يوسف أن يعرف تفاصيل اكثر عن ظروف اختفاء صابر . نطقها : « الشهيد صابر » ، قاطعه أبو كلام منفعلا :

« قل المفقود .. ربما يعود . أمثال صابر لازماً يعود » ثم تابع بعد فترة : « أمثال صابر الوردة فينا . لو نسيناه ، كأننا ننسى كل جميل فينا » .

مل الاعرج حديثهما ، خرج ويقول :

« أريد العب طاولة ... هه » .

تابع أبو كلام :

« كنا ضمن افراد اللواء ١٨ مدرع . اللواء الوحيد المسئول عن مدينة العريش والذى صمد ليوم ونصف اليوم فى قتال مستمر لولا تدخل طائراتهم الميراج . حسمت المعركة لصالحهم . عندما فقدنا الأمل فى ظهور طائراتنا .. قال لى صابر : جيشنا فى ورطة يا فهمى ، بعدها صدرت الأوامر لنا بالانتشار ومعناه طبعاً الانسحاب .. وكان ما كان » .

كلاهما ظل صامتاً ، خرج ابو كلام دون أن ينبس بكلمة .

ــ الصبوب ــ

الصوت الزاعق لأبو كلام يغزو محبس يوسف ثانية . قال :

« علبة سردين تمام ، ونذبح فحلين بصل عال ، وخمسة ارغفة ياعم يوسف ، أكيد الجوع اكل روحك .. »

تابع وهو يجهز الوجبة التى وقف أمامها يوسف صامتاً :

« بدى يبقى عيش وسردين يا اخو صابر » ..

ظل فهمى أبو كلام يتكلم ويتص ، كل صغيرة وكبيرة كانت مع صابر ، حتى تلك التفاصيل المملة والنكات والمواقف المضحكة التى لم يضحك لهـا أو منهـا يوسف ..

غرب أبو كلام ، ترك يوسف مع أحاسيس الغربة والملل ، اطل من الطاقة لعله يجد ما يشغله ، صوت أم وردة جذبه ، تقول لأم عنتر :

« من أصلى الطيب أمر عليكم واحدة واحدة ، واحد واحد ، مسافرة بور سعيد ومستعدة أشترى لكم كافة شىء » .

« أفضل شىء يا أم وردة هو ما نجهله ، اشترى الأشياء الغريبة علينـا » .

« يعنى أشترى لكم فيديو .. يعنى ؟ » .

« وماله ، ما المانع ، لكن ما شكله الفيديو ؟! » ..

ضحكت أم وردة حتى بان نابهـا الفضى اللامع . شرد عنهن ، يوسف لم يتابع الا عندما بدات أم وردة فى حوار جديد :

« من أكل سمكاً اليوم ؟ » .

« كنت مشغولة بحالى يا أم وردة » .

« ياخبر ، مع السمك جمبرى ... جمبرى ! » .

« العروسة الجديدة ، هى أكيد تفيدة » .

« من حقهـا ... عروسة » .

« اسمعى يا أم وردة ، أنـا اشتريت القرطاس » .

اختفى صوتيهما ، بدات أم وردة الهمس وكذلك الجارة .

ـ الحدود ـ

« أنـا عندى قمصان عسل للجدعان » ..

سمعها يوسف فجأة ، اتيه من خلف رأسه ، من خلال الطاقة ، انتبه جالسا ، لمح رأس أم وردة معلقة فى الطاقة وقد اعتلت صندوقا خشبيا .

قبل أن ينطق ، قالت له :

« لا تفكر فى الاسعار ، انا اعرف الزبون من عينيه » .

ابتسمت ، قالت :

« انا منتظراك ، عندى كل الالوان » ..

لم تنتظر ردا .. قبولا و رفضا . تابعت :

« حابس نفسك يا جدع ، بدنا نشوفك ، منتظراك يا يوسف » ..

دهش أن وجدها تعرف اسمه . فوجىء بأن تابعت وكأنها سمعت تساؤله :

« بدنا نشوفك يا يوسف يا عبد الواحد المنسى » ..

بارتباك ردد : « ان شاء الله ، ان شاء الله » .

أما قراره يقينا .. لن يذهب .

— المغرب —

مع انسحاب بقعة الضوء الساقط من خلال الطاقة ، مع انبثاق الشحوب والظلمة .. بدأ يوسف ينفر من جديد بلا ارادة ولا رغبة ، تمنى أن يدفع نصف عمره ثمنا لشمعة واحدة تضىء محبسه ولو لساعة واحدة ، علبه ينجح فى اقتناص ساعة من النوم العميق المطمئن .

ظل يطرق باب الحجرة الأصلية ، سمع الام تحذر بناتها وتأمرهن أن يقطعن النفس . اخيرا نجح فى إحضار شمعة كليلة الأمس .

أنا لا اخشى الظلمة ، اكرهها .. فقط . كثيرا ما كان ابى

يأمـر أمى أن تطفىء أنـوار غرفتى الا من لمبـة صغيرة جـدا عند باب الشقة . يقـول : « يجب أن يتعـود على الظلمـة » تأكدت فيمـا بعـد انـه يكـره النـوم فى الظلمة ويضىء الأنـرار الساطعة داخـل غرفته بعـد أن يغلق بابهـا .

عندما كبرت تجـرات ، سألت أمى محتجـاً . اخيرا قالت :

« بعـد الاعتقال يا يوسف أشـياء كثيرة تغيرت فى أبيك .. تعـودت الآن الا أسـأله ، وأرجـوك الا تفعـل أنت أيضـاً .

لم أحتـج ، لم أسـأله ، ولا أخشى من الظلمة .. فقـط أكرهها ، صـورة من صـور قهـر أبى .

ما أن أشـعل الشمعة وانتظمت أنفاسه ، تذكـر الثقب ، تمنى لـو يقضى ليلته مستيقظاً فى رحـاب الانـاث الأربعـة . ما أن حـدق مليـاً حتى ملأته الدهشة ، دعـك عينـه اليمنى ، الصـق اليسرى ... تأكـد ..

الأربعـة لا يتبادلن حديثاً أو حـوارا « آه » تسمع بوضوح من اثنتين ، الأم وزينب تكفلتا بهمـا ، يتبادلن رعايتهمـا .

« ما هـذه الصـورة الوحشية التى أرى ؟ » .

ملابس ممزقة ، وجـوه محتقنة ، عيـون باكية ، دمـاء وبقـع دمـوية تصبغ بيـاض فخـذ احداهن ، أخـرى ترعى جرحـاً على شـكل أسنان فـوق ثدييها ، الأم ترتق جلبـاب احداهن وقـد تمـزق :

« انهـا مقاتلة ، أبـدا ما كانت مشاجرة بين البنتين » .. مـاذا حـدث بالضـبط ؟

مـاذا يحـدث خـلف الحـائل ... ياربى ؟.

كيف يفعلن فى انفسهن هـؤلاء النسـوة الضعاف العزل ..

بعد فترة صمت ، تابع :

« المنعزلين .. كل هذا الالم .. بهذه الشراسة .. ولماذا ؟؟؟ » .

مل يوسف سؤاله ، اسئلته ، ضرب مؤخرة راسه في مرقده الصلد مرتين متتاليتين حتى آلمته .. فكف .

ـ الشاهد / الغسق ـ

تعود يوسف أن يجعل من التدخين ومعه .. دنيا خاصة ، لها مراسمها وطقوسها الخاصة جدا به .. حرص أن يطيل زمن مرافقة السيجارة التى قرر اشعالها . يتأملها ثم يتحسسها ، بمضى الوقت وبتكرار مجالسة وتأمل السجائر تأكد ان العلبة الواحدة لا تحتوى على سيجارتين متماثلتين .

يهرسها بين طرفى اصبعه السبابة والابهام ، ثم يعلقها فى زاوية فمه فترة دون ان يشعلها . يعود فيتأملها وهى بين اصبعيه وهى بين شفتيه !

عندما يشعلها ، له مع دخانها حكاية . مرة يحاول قنصه ، مرة يقبض عليه بين شفتيه لفترة طويلة ، مرة يخرجه ببطء فى خيط رفيع ، مرة يفتح شفتيه ويفرج فكيه الى آخر مدى ليدعه يندلح بلا ادنى محاولة منه أن يدفعه .

هذا ماكان يفعله ، وما فعله الآن بالضبط حتى انتبه على صوت صراخ امرأة تعدو خلف الجدران ، رجل يسب جدها . اطل عليهما . بان له المعلم عجور الكداب يضرب امرأته ضرباً مبرحاً . فشلت محاولات النسوة والشيخ طه وشمروخ فى الفصل فيما بينهما . اخيرا تقدمت المعلمة أم وردة ، بصوت آمر قالت :

« يا عجور يا كداب ، ارفع يدك ، اسمع الكلام » ..

رفعها . تابعت هي بثقـة :
« البنت عنـدى ، والصباح ربـاح » .
شمروخ مهللا ، يمـلأ طرقات المساكن معلنـا :
« يا عينى يا معلمة ، ربنـا يخليك يا معلمـة » .

عندما اقترب من طاقـة يوسف ، سأله عمـا حـدث ؟ اخبـره برغبة المعـلم عجـور فى تبنى الطفلة ، رفضت زوجتـه قـائلة « انـا عندى خمسة ، صحتى ، ارحمنى » ..

فضربها ، المعلمة ام وردة حسمت الخـلاف بشأن الطفلة .

ظـل شمروخ يعـدو بين الطرقات يعلن الخبـر ، وهـو اول افعـال المعلمة بعـد حـيرم العضـل كـأنه بذلك يعلنهـا اول معلمـة للمسـاكن ، لهـا ما للمعلمـين وعليهـا ما عليهـم من واجبـات .

ضعف الصوت وبعـد ، سمع يوسف صوتا قريبا يقـول :

« الله يمسيك بالخـير يا معـلم حـيرم يا عضـل » ..

الشلل نـال من يوسف فمكث على حـاله لا يدرى مـاذا يجب عليـه أن يفعـل ؟ .

اخـيرا نطق بصـوت يسمعه هـو نفسـه :

« أمـل مـاذا فى راسك الآن .. وحـدك ؟

، هـل مازلت تذكرينى ؟

، بل لمـن هـو فى مثـل حالتى لـه الحق أن يحـلم ؟ ..

ــ العتمـــة ــ

ان انخفض الضجيج قليـلا لم يهمـد تمـاما ..

« الا صراخ الرجـال .. قـاس ، فيـه مـزق فى الكبرياء » قالها يوسف هـو يتـابع بأذنيه صراخ احدهم . تأكـد انه صوت

« أبو عنتر » ، اطـل من الطاقة . اطفـال ، نسوة ورجال نحـو حجـرة الرجـل .

انفـرج الزحـام امـام خطوات المعلمة أم وردة والشـيخ طـه . حـالا خـرج اليهم الشيخ . امرهم :

« النسوان تبعـد .. النسوان تبعـد .. » .

زدن التصاقاً بالباب . عرفن تفاصيل ما حـدث . رددوها نكتـة فى سـامر الليل ، قـلن :

« أبو عنتـر استعمل القرطاس .. وصفة المعلمة أم وردة »

، « الرجـل شكى من الألـم ، لا الميـاه ولا دهـان الفزلين خفف من الألـم » ..

تابعهن يوسف ، عـرف الحكاية ، ضـحك . خرجت ضحكة من صـدره بلا افتعـال ، صادقة وان شـعر بالحـزن عـلى الرجـل ابـو عنتـر !

القسم الثالث

الشتاء والربيع قد يأتيان معاً

الإنتبـــــاه

[١]

اذا اجتمعوا بى عنـوة .. استمع فأتألم ، اذا تركـونى وحـدى .. أتأمل فأتألم ، أين المفـر ؟ انقضت شهور ثلاثة ، عشتها معهـم حتى مضاجعهم . خبـرت سـر ما جمعهم هنـا واختفـاء بعضهم . هالنى فى أول الأمـر أن وجدتهم لا يسألون عن أسباب اختفـاء من يختفى ولا أين كـان ان عـاد ؟ بان لى اننى شاركتهم عاداتهم واعرافهم حينما تذكرت « طاهر الشيمى ». الرجـل الذى لم تسقط حـوائط منزله . استيقظ ذات صبـاح وجـد نفسـه وطفلتيه وحاجياته هـووا الى افـريز الشـارع . لـلم شـتات افكاره واطرافه ، اندفع الى قسم الشرطة والطفلتين خلفـه ليشـكو تعنت صاحب المنـزل المقـاول الشهير ، وجـده بطربوشه الأحمـر الكبير المـائل الى جبهته ، والبالطو الأسـود فـوق الجلبـاب الأبيض ، وجـده يحتسى القهـوة فى مكتب مأمور القسـم ، عرفـه من قفـاه الطويل الأسـود العريض . أدار ظهـره ، سـحب طفلتيه ، زحفـوا جميعـاً الى المسـاكن .

التقيت بـه ذات مسـاء اسفل عمـود الانـارة الوحيـد المضىء فى طرقـات المساكن . سرعان ما عرفت سـر احتـراق بشرية وتشقق شفتيه ، فـورا شرح لى وعـرض بافاضة الكثير عن حياته . يعمل بالصـيد ويدخن بشراهة ، يخـرج الى جبـل المقطـم وصحراء حـلوان وحـده وبآلاته البدائية وبخبرته التى سرعان ما زادت وتنوعت ، أمـا الصغيرتان ، يتركهما بين الطرقات

وقـد تعلمتـا بمضى الوقت أن يقضـيا ساعات النهار والليل مـع الأطفـال الآخرين ، داخـل أيـة حجـرة يأكلان أو ينامان . نادرا ما تكـون الحجـرات مصكوكة فى المسـاكن .

سألته : « مـاذا تصطاد يا طاهـر ؟ » .

اجـاب : « الحـداة من فـوق مئذنة الجوامع القديمـة ، اعطى خـادم المسجد ربـع جنيـه واصعد » ..

أرد دهشـاً : « حـداة » ..

يتابع وكأنه لم يسمع : « ثعابين ، عرفت كيف أكسر أنيابها ، تعلمت كيف احافظ على نفسى » ..

أعـلق ذهـولا : « ثعـابين ! » .

يشهق قـائلا : « الصقر ، اصطدته من المقطـم ، ما رايك يا عـم ؟! » .

يميـل على وكـأنه يسـر الى بسـر خطـير ، يقـول :

« بينى وبينك أكثـر من المـرة بعت حـداة على انهـا الصقر القرشى وبعشرين جنيهـاً » .

« مهنـة غريبة يا طاهـر ، هـل تربـح منهـا ؟! » .

بعـد أن سحب نفسـاً طويلا من سيجارته ، قـال وكـأنه يخاطب آخـر غـيرى ينظـر اليـه ولا يـراه :

« صدقنى ان كان على الربـح فلوس ، انا أربح فلوس .. الأهـم هـو انا ، بعـد كل رحلة صـيد اشعر اننى اقـوى من المعـلم صاحب البيت ، ومن كـل النـاس .. » .

بعد فترة صمت قصيرة ، اشـار الى عينى باصبعه السبابة :

« أنت تعـرف تصطاد عصـفورة ؟ » .

« أبـدا ، لا أعـرف ، لم أحـاول على كـل حـال » .

انفجـر طاهـر الشيمى ضاحكاً ، ضحكة ملؤهـا الانتصار والزهـو والنشـوة ، صمتت طويلا حتى اشـعل سيجارة جديدة وعـاود الاستماع الى ، سألته :

« والمشترى ، من الذى يشترى منـك » ..

« الضفادع والثعابين والفئـران للطلبة وشركات الأدوية ، وايضـاً محلات كبيرة لبيـع الطيور والحيوانات . أفـاض الرجل فى سـرد بطولاته ونجاحاته . اكثـر ما لفت انتباهى تكرار كلمـة ـ نجـاح ـ يسحب نفساً من السيجارة ويقص ، ويكرر اللفظة ، انـه لا ينطق كلمة ـ فشلت ـ يقولها هـكذا .. لم انجح فى .. ؟ المـرة الوحيدة التى نطقهـا ـ كلمة الفشـل ـ كانت بعـد أن اختفت احـدى طفلتيه من طرقات المساكن وهـو فى آخـر رحلة صـيد . لمـا عثـروا عليهـا وجدوها جثـة متعفنة تحت أعتـاب جبـل المقطـم ، ابان الطبيب الشرعى فى تقريره الى النيابة انـه توجـد جريمة اغتصـاب للطفلة قبـل القتـل . يومها قالهـا طاهـر الشيمى وكررهـا : « فشلت الشرطة ياسى يوسـف ، فشلت يا سكان المسـاكن .. فشلت فى معـرفة المجـرم ولم تقبض عليـه » .

قالهـا ثم اختفى والى غـير عـودة ، احدهـم لم يسـأل من بعـــد :

« اين طاهـر الشيمى ؟ » .

لم يكن اختفـاء طاهـر الشيمى ـ الذى لم يعـد ـ وحده الذى اثارنى ، اختفـاء المعـلم عجـور الكداب لـه نكهة خاصة ، أشـبه بالنـادرة التى يحفظها الجميـع ومـع ذلك لا يمـلون الاستماع اليهـا .

الرجـل يختفى لفتـرة فـلا يسألون اين هـو ؟ يعـود ، يستقبلونه بالزغاريد والعنـاق .

يعرفون ما بينه وبين ضابط شرطة المرافق ، بعد كل عودة يقص القصة ونستمع له بانصات غريب . يقول :

« سعادة البيك فى المرة الأخيرة اتهمنى بعدم حمل رخصة [ترخيص لبيع الكشرى] ، اقسمت له ولكل العسكر اننى أحمل الشهادة الصحية ومعى ترخيص البلدية ، يقول لى : « الترخيص الذى تحمله ترخيص اشغالات طريق وليس لبيع الكشرى » .

اسأله : « وحياة عينك واغلى ما عندك .. ما الفرق ، ما المطلوب ؟ » .

يرد بقرف : « الفرق كبير ، ترخيصك يسمح لك باشغال الطريق فى الأماكن التى حددتها المحافظة لكنه لا يسمح لك ببيع الكشرى بالتحديد » .

اقدم له الشهادة الصحية ، « هاهى الشهادة يا سعادة الباشا » يضحك على . يقول : « الشهادة سليمة ولكنها خاصة بك سواء لبيع الكشرى او الفول المدمس » .

أحاول أن افهم ... ، أو يفهم هو ، لا نتقابل . اجدنى مرفوعاً من على الأرض الى قلب السيارة الميرى مقبوضاً على ، أحكى الموضوع للبيك النيابة ، تفرج عنى .

واصبحت لعبة ياناس ، اشوفهم اجرى ، ان لحقونى قبضوا على وصادروا الكشرى ، ان زوغت منهم ونجحت اشعر بأسعد لحظات العمر . وابول .. أى نعم ، ابول على الحائط المجاور لى حتى ولو كان جدار مدرسة ، فى كل مرة يذكر فيها عجور الكذاب موضوع التبول وكثيرا ما يكررها بنفس كلماتها وحواديتها ، ينتفض فهمى ابو كلام ويعيد على مسامع الحضور ذات النكتة القديمة التى يقسم باغلظ الايمان انها حدثت ، يقول المحلل السياسى لأهل المساكن :

« بعـدما اتفق الروس والأمريكان مع بعض ، كانت مبادرة روجـرز ، وقفت حـرب الاستنزاف وبطلنا الحـرب كنـا أيامها نسلى روحنا بلعبة .. ماهـو لا فيـه حـرب ولا فيـه سلم .. كنـا نقف على شـط القنـاة ونبـول على رهـان .. من منـا يرمى ببوله ابعـد ! » .

اما اختفاء عبده البمبوطى واسرته فكان على مـرآى ومسمع الجميـع ، عبـده فضـل العودة لبور سعيد بعدما بدأت حـركة البواخـر فى القنـاة ، سألته :

« بعـودة يا بور سعيد ياسى عبـده » ..

« اى والله .. ترابهـا خـير ، ما شافت عـين ... » .

قاطعتـه :

« راجع لهـا ، مبروك ، راجع للمراكب والبيع والشراء » .

« يقولون سـوق حـرة ، أجـدع من البمبطية » .

صـمت وهـو يقدم لى سيجارة فى انتظـار ما ستنطق بـه امـه وقـد اقتربت مننـا جـدا :

« طلبنـا منهـا تسافر معنـا بور سعيد .. رفضـت » .

سـألتها :

« لكن ام الأستاذ سـيدة محتاجة المساعدة ، هـل ستعيش وحدهـا ؟ » .

« رغبتهـا ، ام الأستاذ أمـانة فى عيونكم » ..

تذكرت نجـاة ابنهـا ـ الرجـل المهـم ـ :

« تخبـر ابنهـا الأستاذ .. » .

قاطعتنى ، صرخت :

« لا تفعلوا ، احذركم جميعـاً » .

فـردت أصابعها ، بسطت كفهـا ، بان لى القرط الذهبى ،

لكنى لم افهـم ، لحقتنى قـائلة :

« حلقهـا الذهب ، سوف اعطيه للمعلمة أم وردة ، اصرفوا بثمنـه على خرجتها ، وصيتها ! » . ثم تركتنى وابنهـا وهى تردد الكلمـة : « وصيتها » وتكررها بانتظـام .

ذات صـباح اقتحمت سيارة فارهـة طرقات المسـاكن . لم يصـدق أحـد أن المساكن فيهـا من يمـلك مثـل تلك السـيارة بـل ولا حتى أحـد أقربائه . احاطتها النسـوة ، اعتلاها الصبية ، عيـون الرجـال سـالت .

وقتهـا تقـدم المعـلم حـيرم العضـل ، دخـل خلف الرجل صـاحب السيارة والذى كـان يسحب فى يـده سيدة عجـوز ، تأكدوا أنهما دخـلا حجـرة عبـده البمبوطى البور سعيدى المهاجر منهـا منـذ حـرب ٦٧ اخـيرا خـرج حـيرم ، كشف السـر ، قـال واعـلن :

« بالداخل سيدة عجوز قالت لى نادونى بـ « يا أم الأستاذ » ابنهـا هـو صاحب السيارة .. الأستاذ ، أحضرها معـه الى هنـا ، لتعيش مع قريبتها أم عبـده البمبوطى » .

سالوه تفاصيل اكثـر ، لوى شفتيه . ما أن لمحـوا الرجل يقـود السيارة عـائدا بدون السـيدة العجـوز هـذه المـرة اندفعوا الى الحجـرة . سالوها عن سـر تركهـا منزل ابنهـا لتعيش هاهنـا فى المسـاكن ، لم تـزد عن كلمـات بعينهـا :

« أدعـو لـه ، أنـا قلبى يدعـو لـه » .

كمـا كان حضـور السيدة العجوز مباغتـا ، كذلك كـان موتهـا . لم تمـرض ، لم تشـك .. لعلها كانت تتـألم ، لعلهـا اصيبت بعـلة مافى ايامهـا الأخـيرة ، الا انهـا ابدا لم تتفـوه بكلمة الى النسـوة اللاتى تجلس اليهـن ويجلسن اليهـا بعـد رحيـل أم عبـده .

ماتت « أم الأستاذ » ، قبروهـا فى الصباح ، فى الظهـيرة اختلفوا فى أمـر الحجـرة . اخـيرا نجحت المعلمة ام وردة فى الاستيلاء عليهـا دون اخطـار المحافظـة . بمضى الوقت باتت المحافظـة واجهـزة الحكومة تجهـل تفاصيل ما يحـدث ويجـد فـوق ارض المسـاكن . فـلم يعبـر بواباتها أحـد من موظفى الحكومة ، وربمـا يحـدث ويسال عن أمـر مـا ، لن يجـد اجابة شافية ولا ادنى عـون . مهمـا تصارع اهـل المساكن فيمـا بينهم على أمـر ، لن يكـون للحكومة الكلمـة الفصـل فى هذا الخلاف ، شـعار غـير مكتوب متفق عليـه .

[٢]

اكتسب يوسف عـادة الالتصاق بالثقب ، ما عادت رغبـة شبقيه ولا هـو الفضـول :

« زينب فقـدت حيويتها وبريق عينيها ، هـذا المساء لا تكتب قصائدها الغامضة . زينب مريضة اكيـد مريضة » .

مازال يوسف يتـابع حتى تأكـد من مرضها ، تتقيـأ وتلطم خديهـا . لم ينزعه من الثقب الا « شمروخ » ، وحـده القـادر على هـذا الاقتحام ، قـدم حـالا من جلسة النسـوة فى سمرهن الليلى .. الجـديد ام خليـل حـامل ، السيدة عبـرت الخمسين وزوجهـا ابو خليـل عبـر الستين ، وقالوا انهـا لم تنجب خليل ، لا خلفت بنتـاً ولا ولـدا ، وقالوا خلفت والولد تـاه .. الله أعلم . وقـال شمروخ كلامـاً كثيرا لم يسمعه يوسف ، شرد ، لم ينتبـه لخروجـه .

لا يدرى ايـة رابطة تلك التى جعلته ينشغل بزينب تلك .

انقضت ساعات من الليـل ، لا يعـرف عددها ، انتبـه على احداهن ، المساحيق صنعت وجههـا ، لم يتمكن من التعـرف

عليــه ، صوتها سمعه من قبــل ، بالضبط اين ومتى ؟ لم يستطع التعــرف عليــه ، قــالت :

« أنــا عندى ثلاث كلمــات » .

« تعرفين زينب المريضـــة ؟ ...

« تعرفين ام خليــل .. حــامل » .

لم يســمع ردا ، لعلها دهشـــة ، ربمــا فوجئت بمــا لــم تأت لسماعه ، ما كان منهــا الا ضحكة عالية ذات رنين وجلجلة :

« ومــاذا يهمــك انت فى تلك المواضيع ؟ » .

« أجيبينى » ..

« لا شىء يهــم .. المهــم الآن انــا قــررت ان تنضــم الى فرقتنــا » !

تأكــدت انهــا « ســونة » الراقصة ، كــم تشاجر الرجــال بسببها .. منهــم من يؤكــد انهــا اشرف من الشرف ، منهــم من يقســم باغليظ القســم انهــا مومس ، مجموعة ثالثة تقولها هكذا :

« ايــاً من تكــون سونة ، بنت بلد طيبـــة ! » .

جذبته من شرودته ، سألته ، اجــاب :

« اعمــل معــك فى الفرقــة ؟ .

ماذا اعمــل .. راقص . ثم لمــاذا انــا . انــا بالذات ؟ » .

« من غـــير سخرية ، انــا مجربة الأيام الضنك وعلمت انك تجيد اللعب على الطبلة ، كنت ضمن فريق الجامعة للموسيقى .. صـــح ؟! » .

كأنهــا تذكرت أمــرا ، تابعت :

« لــكن قــل لى ، كيف عرفتنى ؟ » .

« من رائحتك وميعاد زيارتك ! » .

« الله يسامحك » ..

رجت : أطلت عليه من الطاقة ، تابعت قائلة :

« فكر ، عندى فرح الخميس القادم ، بعد أسبوع ، حمن نفسك محتاجة طبال وانت محتاج القرش تأكل وتعيش » .

اليـــوم التـــالى وما بعـــده

[١]

لم تعـد أخبـار فهمى أبو كـلام ولا تحليلاته تكفي ، كـان نقطـة الاتصال الخفية بين يوسف والعـالم . يروى أخبـار دورى كـرة القـدم ، بعـد عودته من توقف دام سنوات طويلة بعـد حـرب ٦٧ ـ الكـرة وأم كلثوم معـاً ، سببا النكسة ، هـكذا كان يردد فهمى الذى أصـبح يعشقهما والسـر فى هـذا التغـير فى ظنـه يرجـع لأسباب لا تتعلق بالكـرة ولا بالمطربة ، بل تتعلق بـه هـو نفسـه ـ يقـول :

« أشياء كثيرة تغيرت داخلى يا يوسف ، لا تسألنى السبب ـ ربمـا الآن عينى شافت وقلبى شـعر وشـارك ، بعـد رجوعى من حـرب ٧٣ بصيت على الدنيـا بعين ثانيـة ، وقلبى تعـلق بأشياء ما كانت تخطـر على بالى ، بعدما سافرت بور سعيد مع المعلمة أم وردة ، شفت الدنيـا هنـا ، قابلت عبـده البمبولى .. فاكـره ؟ ، انقلب كيـانه . بعدما عرفت أن « سـيد سـوكة » فتـح محـل قطـع غيـار سيارات فى ميـدان القلعـة . سـيد هـرب منـذ ثالث أيـام الحـرب وادعى المـرض ، خـالت على الدكاترة ونجحت الحيـلة ، أنـا وحـدى محلك سـر .

ماهـو خـلاص ، لا عـدنا نحـارب ولا نستعد لحـرب . قعدنا معهم ووقعنا فـض الاشتباك الأول والثانى والبقيـة تأتى .

من حقى الآن أنقـذ نفسى ، أخلصها قبـل أن أعيش بقيـة عمـرى شايف وعـارف ولا طـايل ..

قاطعـه يوسف زائـغ العينين :

« الله يمسيك بالخير يا عم يعقوب ، قالها .. مصيبة ان تكون فاهم » .

« من يعقوب هذا ؟ » .

« لن تعرفه ، قل لى ، المهم الآن انا محتاج لوظيفة اعيش منها اعطنى نسخة من الثلاث صحف ، اقرأ فيها أبواب الوظائف الخالية » .

استمر يوسف لشهر كامل يتابع ويقرأ . ندم كل الندم ان خلقه الله ذكرا . الوظائف المطلوبة ، اما سكرتيرة .. انثى ، خريجة الجامعة الأمريكية ، تجيد ثلاث لغات ، حسنة المظهر وجميلة ، واما مربية مقيمة مع ضرورة أن تكون انثى ، مؤهلة ولها خبرة سابقة ، حسنة المظهر وجميلة ..

« كأنك يا مصر مسكونة برجال أعمال ناجحين واغنياء .. فقط » ..

قالها لفهمى ذات مساء ، تابع :

« اسمع يا فهمى ، لا تحضر الجرائد بعد اليوم » .

[٢]

دخلت السيارة « الميكروباس » دائرة الضوء الباهر ، وقفت امام باب النادى شعر يوسف بآلام اسنانه تتجدد ، تزدادا رويدا ، جعلته يقبض على وجهه بين راحتيه . تابع ما يحدث باذنيه . وحده قابعا فى المقعد الأخير الخلفى للسيارة ، بجوار بعض الآلات الموسيقية التى يخشى من تحميلها على سقف السيارة .. مثل « الصاجات ، الطبلة ، الرق » الضجيج الزاعق حول السيارة جعله ينتبه ، شاهد لحظة هبوط « سونة » من السيارة بعد أن ظلت لفترة ليست بالقصيرة جالسة عن عمد حتى يعلم الجميع بوصول الفرقة

الموسيقية والراقصة المنتظرة ، وحتى تجد من يستقبلها بما يليق بها من اهمية .

الشباب التفوا حول السيارة ، انبثق من باب النادى الرجل الوقور المنتظر مرحباً ، مهللا . اومأت برأسها ، بعدها استعد الجميع للهبوط . السائق وحده الذى انزلق من السيارة فور وصولها ، عليه مهمة رفع الآلات الموسيقية من اعلى سقف السيارة وقد قيدت بالشبكة .

« سونة » افتعلت عدم قدرتها على فتح باب السيارة ، فتحها الرجل الوقور ، مد يده ، هبطت بسرعة ودلال الى الأرض ، ازاحت يده من يده وهى تضربه على كتفه بيدها الأخرى مبتسمة مقهقهة .. ليقهقه الرجل ، لعله لا يدرى السبب .

فور هبوطها الى الأرض اشارت الى الفرقة ، هبط الواحد تلو الآخر ، حالا تلاشت الفوضى والضجيج باندفاع سونة الى الداخل رافعة الرأس غير مبالية بأى منهم ولا حتى بالرجل الوقور كما نجوم السينما . اما يوسف فقد شعر برهبة أقسى من تلك التى شعر بها مع الرجل المسئول حين زمن البحث عن مأوى . لم يتردد كثيرا امام صراخ السائق ان يهبط . احكم القبعة التى اوصاه « عم عودة العواد » بشرائها لقتل ما يستشعر به من حياء ، نجحت القبعة ولبان الدكر فى امتصاص الكثير من قلق يوسف فى ليلته الأولى للعمل مع فرقة سونة الراقصة .

خلال فترة التجهيز لخروج الراقصة « سونة » انشغلت فى ضبط الايقاع واختبار الطبلة . الحقيقة كان همى الا تقع عينى على وجوه الحضور . خلتهم لا ينظرون الا على ، لن يفلت نظرهم ويشد اهتمامهم الا وجودى لم ينقذنى الا « جودة »

ليس من الموسيقيين ، لكنه رفيق سونة الملاصق بردفيها دوما ، منذ ان هبطت من السيارة وحتى دخلت حجرة تغيير الملابس ولارتداء بدلة الرقص . عذرت زوجته وهى تشكو لاحدى النسوة فى المرحاض ، وقتها لم افهم سر غضبها ، الآن فقط فهمت . لن تنقضى الليلة بسلام وكما نريد او تريد سونة الا به فهو لبق الأسلوب ، منظم التفكير ، يوحى بالوقار وان حرص على لصق شعره بالفزلين وتعليق وردة فى سترة بذلته التى تبدو اقصر منه طولا واضيق عرضاً .

لم تبدا سونة رقصاتها الا بعد ان قدمها جودة بما يليق بها ، اثناء الرقص كل همه وهو يراقب الصالة امامه والحضور .. حمايتها من اى منهم يحاول الاقتراب او الرقص معها الا بعد اشارة موافقة منها اليه ، ثم هو الذى يجمع « النقطة » ويردد التحايا خلفها والأهم ان يثير الحضور لأن يخرجوا اكبر مبلغ ممكن من جيوبهم ، هذا وحده فن لا يجيده الا القلة ، وجودة منهم ..

نجح فى فرح تال ان اثار ثائرة الصعايدة والفلاحين ، كل تحمس أن يدفع اكثر ويردد ما يجد فضائله حتى تعدى الأمر ان هاجم احدهم الآخر بالاسم ولصفته انه فلاح .. كانت الواقعة قضينا ليلتها فى مستشفى « المقطم » بعد اصابة عم عودة العواد فى راسه !

بمضى الوقت لم اتعود وجودى بالفرقة ، ولم يتلاش احساسى بالرهبة والخوف وكانى ابحث عن مأوى .. وكانى فى الجب مازلت .

[٣]

الليلة دخلت السيارة « المكروباس » دائرة الضوء الباهر . وقفت امام باب عمارة أعرفها . نعم هاهى ذى حوائط المدخل

المجلد بالمرايا وبابها الحديدى المطلى بالأخضر « انه مسكن امـل »
وكمـا تفعل سـونة من قبـل فعلت ، دخلت ، اختفت ، زجـرنى
السائق ان انـزل ، ترددت ، نفـذت أمـره ولا حيلة امـامى .
تخوفت أن انـزل ، خشيت ان تكـون العروس « أمـل » .

تأملت دبلتى الفضية الشىء الوحيـد الذى لم افقده حـين
السقوط ، قـرأت اسمها محفورا على سطحها الداخـلى حككت
الدبلة كى تلمـع . وجدتنى امـام باب الشقة المتخمـة بالنـاس
والضـوء والضجيج . شققتها شممت رائحتها . رائحتها نفـذت
الى يا نفوخى . قـرات اللوحة المعدنية « راشـد معتـوق .
صاحب مكتبـة » لم ابـرح موقـع حذائى الا بعـد صراخ احدهم ،
لا اعـرفه .

« زملاؤك فـوق ، على السـطح » ..

قدماى سحبتنى ببـطء الى حيث لا ارغب ، نحـو الكوشـة
حدقت عينى « أمـل » عـروس الليلة .

دهشـة نظـرت الى ، لا ادرى لمـاذا ؟ ، ربمـا وجدتنى
طبـال الفرقة . اليست طالبتنى الانتساب الى معهد الموسيقى ..
شجعتنى من قبـل !

بثقـة همست الى اذن عريسها ، قدمتنى اليـه ، تقدمت ،
صافحتهما ، سألته :

« هـل وجـدت الشقة ، ازمـة المساكن .. ؟ » .

قاطعنى : « فى الفيـلا .. سوف نتزوج قريباً مع العائلة » .

لم اجـد ما اعلق بـه ، تعمدت أن اجلس خلفهـا وخـلف
الفـرقة بحيث لا اراهمـا ولا ترانى هى وانـا اقـرع الطبلة .

بذكاء سـونة الفطرى الأنثوى اشتمت فى الأمـر شيئا .
حاصرتنى طـوال رحلة العـودة الى المساكن ، حيث جلست الى

جـوارى فى المقعـد الخلفى . دائمـا تجلس فى المقعـد المجاور للسائق فى رحـلة الذهاب الى الحفـل امـا العودة فلا ضرورة لذلك . الآن حرصت ان تجالسنى . سرعان ما تأكـد ظنهـا ، فابتسمت وكفت النطق حتى وصلنا الى المسـاكن .

ما ان وقفت السيارة ، سحبتنى من يدى ، ادخلتنى حجرتها ، جهـزت كوبين من الشـاى الساخن . وانا داخـل غرفتها لا الهث ولا انفـر . اول ما نطقت بـه :

« اتمنى اعيش معـك هنـا يا سـونة بعيدا عن روائـح المرحاض الملاصق لغرفتى » ..

ضحكت وكأنهـا فوجئت ، الا انهـا اخذت الأمـر مأخـذ الجـد وهى تعلق قـائلة :

« وانـا موافقـة » ..

نهضت ، جلست الى جـوارى ، وجدتنى انطق بمـا قفـز الى راسى لحظتهـا ، قلت :

« معـك ، ووحدنا ، يتـأكد لى ضرورة ان يكـون للانسان مكان محـكم الغلق .. بغـير ثقـوب » .

جلجـل صوتها فى تلك الساعة المتأخرة من الليـل بضحكة لم اسمعها من قبـل أو بمثلها وهى تقـول :

« لم افهـم ، مـاذا تقصـد ؟ » .

تكررت الأفـراح وتوطدت علاقتى بسونة . كأنهـا شعرت بمـا لم احاول الكشف عنـه . قالت لى ذات ليلـة :

« انـا كفيلة ان اجعلك تنسى أمـل » ..

« ... لكن كيف ؟ » ..

« اعطيك ما لم تعطـه لك » ..

نظراتها الشبقية وهى تنظـر الى من فوق السرير الصغير ، جالسة امامى منشـورة المشاعر والأطـراف الراس لا يستقيم على

رقبـة ، الذراعان تلتقتـان يبعثران الشعر المنثور على كتفيهـا فى غـير انتظـام ، جسـد لادن لا يقـوى على الثبـات ، سـاق هنـا واخرى هنـاك . كانت داخـل قميص نومها وافـرة الأنوثة وكأنى لم أرهـا ترقص شـبه عارية ، قالت لـه « انتظـر » .

اختفت خلف ضلفتى الدولاب الصغير ، شغلت نفسى برؤية الحجـرة المتخمة بالآلات الموسيقية ..

قالت وهى خلف الضلفة : « سوف أرتدى لك ولك وحـدك البدلة الجديدة ، لن ارقص بهـا من بعـد الا لك » .

لم أجـد ما أرد بـه ، تابعت هى :

« تعـرف يا يوسـف ؟ » .

زمت ولم أنطق ، تابعت :

« تعـرف اهـم شىء بين الرجـل والمـرأة ؟ » .

زمت ثانية ولم انطق ، قالت هى :

« الشـــوق » ..

قالتها وقـد انتهت من ارتـداء البدلـة الجديدة ، اسرعت نحوهـا ، ضممتها ، تشابكت كفـاى خلف ظهرها : لم ينفرجـا بالرغـم من كلماتها السعيدة .

« أصـبر ، أصـبر على رزقك ، لكنى لم اصـبر » .

نجحت سـونة أن تفض بكارة يوسـف . ما عـاد يتردد فى أمـر يأتيـه رهـن الخاطر ، لم يعـد قلقـاً على غـد لم يأت بعـد . عـلا صوته حـين محادثة الآخرين كـاد يصـبح ثرثارا وما كان كذلك ، يحـدق فى العيون والنـاس والأشياء وما كان يحادثهم الا تائـه العينين محتقن الأذنين .

الخـــــروج

[١]

دخــل فهمى ابو كــلام على يوسف صائحاً كعادته ، ضاحكاً هــذه الليلة ، يقــول :

« هــل علمت بمــا حــدث اليــوم ؟ » .

« لا جــديد .. مــاذا حــدث ؟ » ..

« المعــلم عجــور الكــداب ضرب علقــة ســاخنة وكلــه جــروح وكدمــات » ..

« وما الجــديد ؟ » ..

« الجــديد هــو السبب ، النــاس ضربت البــاعة فى السوق تصــــدق » ..

« لمـــاذا ؟ » ..

« ضجوا من ارتفــاع الأسعار وســوء معاملة البــاعة ، ضربوهم ، كــأن كل النــاس اتفقوا وخططوا ، بدأت بمشاجرة عــادية بين احــد الزبائن واحــد البــاعة ، دقائق وانقلب السوق الى حلقــة ملاكمــة » .

كــأن يوسف لم يسمع ، قــال :

« سألتك من قبــل لمــاذا لم تتزوج لم تجبنى » .

انفجــر ابو كلام صائحاً :

« مــاذا بك ؟ ببساطة تستقبل مثــل هــذا الخبــر وكــأنه شىء عــادى . اكيد محتاجين حــرب ثانية ربمــا نفيق ونفهم » .

عــلق يوسف قــائلا :

« نفسى اجــرب تدخين الحشيس » ..

تابــع بعــد صمت أبو كلام ، قــال :

« معى فلوس ونفسى ادخن ، اجـربه » ..

امـام منظـر يوسف اللافت للنظـر المرتبك وان حـاول عكس ذلك ، قـال صاحب النصبة والمشرف على الغـرزة التى تبـدأ فى الحيـاة بعـد الحادية عشرة ليـلا :

« لن آخـذ منـك مليماً أحمر لو سحبت النفس صـح .. موافـق » ..

كانت المفاجـأة ، كسب يوسف الرهـان ، بنفس واحـد قـوى ومستمر اشـعل الكرسى واحترق الحشيش وسط تهليـل الرفـاق وزعيقهم بـل ودهشـة أبو كـلام المتـابع فى صـمت .

[٢]

انقضى زمن الدهشة ، لم يعـد يوسف قابعـاً فى محبسه .

خرج اليهم ، خالهم فى جب كبـير .. بلا ابواب .. ترى .

فى صباح تـال شق عـلى ان افـرج ما بين جفونى ، فى تؤدة كانت خطواتى بين الطرقات . لا ادرى الى اين ؟ . لم افق من النسمة البـاردة ، انتبهت على يـد حسن الأعـرج تقبض على كتفى كانت يـده دافئـة بالرغـم من برودة ينـاير ، نظرت اليه وجدته يلهث ، كان يعـدو . سألته . قال :

« هـل لا تشـم الدخـان الذى يمـلأ الدنيـا ، النـاس كلهـا تعطس وتدمـع بسـببه » ..

لحظتها لمحت بعض الصبية يحملون زجاجات الخمور الأجنبية والأطبـاق والفناجين الصينى القيمـة .. سألته عمـا حـدث بالضبط ، قـال :

« الدنيـا مقلوبة ، الأتوبيسات لا تعمـل ، المتـرو وقف ، السيارات معرضة للكسر والتحطيم . الشوارع مزروعة بالناس .

نصفهم بيكسر والنصف الآخر بيشجع . وعساكر الأمن المركزى هاتك ياضرب على الآخر » .

« والسبب ؟؟ » ..

« الأفندية قالت ان الاسعار عالية والمرتبات قليلة » ..

وجدتنى اقول لنفسى .. الظاهر عيشتنا فى المساكن علمتنا قلة الاحساس ، تساوت عندنا الاشياء .. كل الاشياء .

عندما وصلت الى شارع محمد على ، لاحظت جموع الجنود تتقدم معاً فى خطوات منتظمة وتتقهقر معاً بانتظام ايضا . الصبية يلقون عليهم الحجارة ويلتقطون قنابل الدخان ويرمونها عليهم ثانية ، مللت اللعبة ، لم اشعر اننى طرف فيها ، لم اجد داخلى ما يحفزنى على عمل ما افعله مع الجنود أم ضدهم قررت العودة الى محبسى . استقبلنى شمروخ ، بلهفة وحزن قال : « ابو كلام غارق فى دمه يا يوسف ، ابو كلام ... » .

اندفعت الى حيث اشار شمروخ ، الى شقة ام وردة . وجدتها وضعت البن على الجرح ولفته بمنديل راسها الاسود .

طيلة اسبوع كامل ظل ابو كلام تحت رعاية المعلمة ، وقد افاضت عليه بكرم وسخاء قبل ان يترك شقتها قال لها ولنا :

« انا حاربت فى اليمن وفى ٦٧ وفى عمليات حرب الاستنزاف واصبت فى حرب ٧٣ — اشار الى فخذه — لم تألمنى العملية الجراحية مثلما تألمت من جرح راسى هذا » ..

بلهفة اغرقت ام وردة راس ابو كلام بين نهديها وهى تربت عليه ، قالت : « لم ارك تبك من قبل يا ابو كلام » فى الطريق قلت له : « المعلمة ريداك يا ابو كلام » ..

ابتسم ابو كلام كطفل صغير وبالرغم من ثرثرته الا انه لم يعلق هذه المرة .

البحـــث

[١]

اشـــهد انى كرهت رائحـــة انفـــاس المتخمة بروائح الخـــدر والغـــدر ، نبـــاح قلبى اسمعه من وريـــد اذنى حين الكـــرى وفى سويعات الانتبـــاه .

انهـــارت مع جدران المنـــزل .. فرحتى ، وان ابتسمت فى ليـــالى افـــراح الآخـــرين وان ضحكت مخـــدرا زحفت نحـــوى كل تنـــاديل البحار تلهينى ، رايتها فى رجـــال احاطونى ليلة السقوط ، وما بعدها موظفـــو عطايا الحكومة ، المسئول المهـــم وقـــد صـــنع من لحمى سلما ، رجـــل السجل المـــدنى الذى سلمنى الى دفـــاتر بالية لأبحث فيهـــا عن رقمى الثلاثى للبطـــاقة الشخصية وقـــد التهمته الفئران وأطعمتنى الويل والمـــلل . عمـــال الطابونة وسكان المساكن بعالمهم المنفى القـــائم على قـــاعدة صراع المفاضلة فيمـــا بينهـــم .

آلمنى ان فقـــدت روعـــة مشاعر الانتظار والشوق والحـــلم بزواج أمـــل وشعورى ان امتلكتنى ســـونة . لســـت مقبوضاً عـــلى .. خسرت ما انطوى من ايامى . لن افقـــد ما بقى منهـــا .

شرع يوسف يخطـــو الى حيث لا يعـــلم ، قـــرر ان يقتات من عمـــل غـــير ذلك الذى ينهض بـــه ، طبـــالا فى فرقة راقصة . سمع صوتاً لأحدهم ، لعله حسن الأعـــرج . « انتظر يا يوسف ، عندى لك مفاجـــأة » ..

اسرع يوسف اكثـــر حتى اقترب من ضجيج ميـــدان القلعة ، انزاح بين المتزاحمين حـــول عربة بائـــع الفـــول المدمس صائحاً

مع الصائحين ، التهم طبقين ، تجشأ ، شعر بالامتلاء .

جلس على أول مقعد لأول مقهى بشارع المغربلين . النادل العجوز اقترب منه ، التصق بأنفه ، طلب منه قهوة دوبل ، لم يشغل باله بسلوك النادل الذى أسرع الى صاحب المقهى المعتلى منضدة خشبية بجوار النصبة . بوقار من خبرته الحياة ترك صاحب المقهى مقعده ، تقدم فى ثبات سأله :

« أنت لست من زبائن المقهى ، لا صباحاً ولا مساءا » .

حتى يزيل ملامح الريبة التى ارتسمت على سحنة يوسف ، جلس الى جواره ، قص وتكلم فى أمور كثيرة اقسم عليه بشرب الينسون ، رفض محاسبته وقال :

« منذ لمحتك وانا منجذب اليك ، حقاً من شابه جده فهو من صلبه .. تعال » ..

للحظة راودت يوسف فكرة العدو والهرب ، لولا متابعة الرجل قائلا :

« عرفنا بما حدث من الجرائد ، لكن اعمال جدك واقفة لك » ..

سارا متجاورين حتى وصلا « حيضان الموصلى » استقبلهما الرجل الطويل ، النحيف ، الحاد الملامح ، البارز الجبهة ، الغائر العينين ، المغضون الوجه ، الخشن الصوت والكفين ، النجار البلدى الأسطى شمس . همس صاحب المقهى فى أذن شمس ، بعدها حاول النجار اقناع يوسف أن يعمل معه ، فقال له :

« لن افيدك ، لا اعرف شيئاً عن تلك الحرفة » ..

« لا يهم ، من شابه جده فهو منه ، لا تكثر الكلام معى » .

بدفعة مابين الغلظة واللين جذبه الى مدخل المحل

ليختفى الرجـل صاحب المقهى ، ليجلس يوسف عند المدخل يتأمل الأشياء من حـوله ، قصـر الشوارع فى المنطقة ، التصاق المنازل الوطئـة اللافتة الزرقاء المـائلة هناك .. المثبتة بثلاث مسامير فـلوى رقبته ، قرأهـا « حيضان الموصلى » .. « اذن فـأنا فى موطن مولدى » . تابـع ببصره تلك البوابة الملوكية الطـراز والهيئة من الحـديد الصدىء وطئـة بحيث لا تسمح بمرور سيارة نقـل تحتها امـا المشربيات الخضراء الجـربة من حوله فلم تلفت نظـره الا بعـد أن خاطبه النجـار آمـرا أن يـرى ذلك الجهـد المبذول فى صناعة تلك المشربيات صناعة زمـان .

الرجـل انشغل عنـه لفتـرة قصيرة . التفت فجاة اليـه قـائلا :

« لكن اسمع ، هنـا تنسى حكاية السقوط ، المنشار يأكـل اصبعك شغلتنا للرجـال المجـدع » ..

تابـع : تنادينى بـ « يا أسطى شمس » . اكلك ونومتك عـلى .. مبسـوط ..

آخـر الليل اسـدل الرجـل المنزلق الصـاج المجعـد ، السواد غلف الدنيـا من حوله ، حـاول أن يتعـرف على الأشياء داخـل السواد .. فشـل لمـح ضـوء هـين من اللمبة الصاروخ الصغيرة هنـاك . وضعها الأسطى داخـل صفيحة صدئة نـزع احـد جوانبها . تاكـد انـه لا يوجد اكثـر من متـر واحد شاغرا كى يرقـد فيـه . لم يشعر بالأزمة طـويلا ، نـام .

فى الصباح البـاكر لطمـه ضوء الشمس ، انتفض ، لمـح الأسطى شمس الذى قبض على ذراعى الشـاب المرتبك ، نظـر اليـه بنظرة وكأنهـا الاتهـام :

« ناعمـة ياروح امـك » ..

ضحك الرجـل متابعا : « أريدها هـكذا » ، ومـر بكفـه

الخشنة فوق قفاه . ثم ربت على كتفه بلطف مناقض انفعاله الاول ، قال :

« اكيد الرائحة كانت سيئة ، عفن وكمكمة . رائحة الغراء والسبرتو ورماد الخشب المحترق والجمالكة » .. ضحك عندما انفعل يوسف مؤكدا على كل كلمة . تابع الرجل :

« حتى تعرف الفرق ، من الليلة ستنام فى شقتى ، نستيقظ سوياً ونعود سوياً » .

مرت الأيام ثقيلة ، ملولا عاشها يوسف ، ما ان يفرغ لنفسه يتساءل :

ما سر هذا الرجل ، انه يأمرنى بالقيام بأعمال لا علاقة لها بحرفة النجارة . احضر له الشاى ، انظف الدكان ، واجمع النشارة ، اجهز العدة وله وحده ، كلما حاولت مشاركته يضربنى على أردافى مرددا لقباً الصقه باسمى : « اصبر يابن عزيزة لما يخشن كفك » .

ضقت من حالى : بدأت اشكوه الى زوجته الجميلة التى تصغره بعشر سنين على الأقل . دائماً عطرة الرائحة ، لامعة البشرة ، منديل راسها يميل بخفة فوق حاجبها الأيمن اعلى عينيها المكحلتين ، كأن عدم انجابها جعلها تتفرغ لنفسها وتحرص على جمالها اشد الحرص .

كثيرا ماكان الأسطى شمس يرسلنى اليها كى احضر الشاى او الافطار او مبلغاً من المال . وكانت فرصتى ان اقص واحكى ، لا ان اشكو . فوجئت بها تشكو ، خلتها جميلة ، صغيرة ، ميسورة الحال ، بلا شكوى . قالت :

« عندما كفوا عن تذوق الجمال أهملوا الرجل ، الأسطى شمس معلم شاطر » .

« اعتقد ان زوجك ثروة حقيقية » .

« عندما تزوجته كان من أمهر فنانى الأربيسك فى مصر كلها ».

« كثيرا ما حدثنى عن هذا الفن ، اعلم انه فن بدأ يندثر » ..

« صدقنى كنت اعشق فيه الأسطى المنتصر العائد كل مساء . الآن يعود خائر القوى ، محبط الروح ، حزين النفس حتى انه لا يطيق محادثتى ، بالرغم أن حجم العمل الآن اقل » .

[٢]

رويدا تمزق الحرج والكلفة فيما بين يوسف وزوجة الأسطى شمس ، باتت تستقبله وتلبى طلبه ــ طلباته التى كثيرا ما يرسله الاسطى بشأنها ــ بملابس حجرة النوم بعد ان كانت تحرص على ارتداء ما يسترها .

ذات صباح قريب ظل يوسف منتظرا فى صالة الشقة حتى تخرج اليه بالمبلغ الذى طلبه للأسطى . صاح عليها ، نهرته ، أمرته ان ينتظر . نفذ أمرها ، اشعل سيجارة متأملا الأشياء من حوله ، اذا بباب غرفة نوم يفتح صاح يوسف عليها ، امرته ان يدخل ، فعل . اذا بها تستقبله عارية فوق سريرها . صلب يوسف على نفسه مرفوعاً على عوده ، يتمتم :

« ليس تعففاً وورعاً .. هى المفاجأة » .

صرخت فى وجهه :

« يا غبى ، يا غبى » ..

اول ما فعله من بعد أن عاد الى رشده ، طوى درجات السلم ، عاد الى الدكان . لمحه الأسطى شمس ، ادرك ارتباكه ، لم يستوضح الأمر . قرر يوسف أن يبيت فى الدكان ،

لن يذهب الى الشقة فى غير وجود الأسطى . وقف أمام الرجل المشغول فى صنع طبلية خاصة جعل قواعدها من الخشب الزان وحك سطحها بالفارة حتى باتت صالحة للدهان الواجب للموبليا الثمينة . ما أن يهم بالكلام حتى يقاطعه شمس قائلا :

« اجدع من أى كلام فى الدنيا كلها ، أن تصنع شيئا ، أى شىء عياناً بياناً .. أنظر » .

بعد فترة صمت قال لى : « فكرة النوم فى الدكان مرفوضة لا تطلبها » .

انقضت خمسة شهور ، لم يتعلم يوسف فن النجارة ، انشغل بالمراة أكثر .

[٣]

حمام الأسطى شمس مباح صباحاً ومساء . صباح اليوم ارتميت تحت الرشاش الدافىء . خيوط المياه المدلاه من أطراف أصابعى وأنفى ومن بين فخذى عتمة ، كأنى ما استعملت المياه لسنة فائتة . تأملت عضوى الذكرى ، دهشت ... تساءلت :

« ماذا دهاك يا ملعون ؟ » .

لئلا تعلم تلك المراة أن الأمر بيدى . زوجة شمس تحدثنى بأنوثتها وتحديتها باسقاط رجولتى عمدا . ليلة الأمس تسللت الى مضجعى ، كانت من قبل تراودنى بعينيها وهزهزات أردافها ونهر نهديها العميق الناصع البياض ، قالت :

« قررت أن تكون الليلة لى ، أن أتذوقك يا يوسف » .

الم أسنانى جعلنى أغرق وجهى بين راحتى ، فابتسمت دوما تبتسم ولا أدرى لماذا ؟ .

اقتربت منى اكثـر ، عدوت كى اضىء الغـرفة ، وحش قوى قـادر دفعنى ، قالت بثقـة وفظاظة :

« الظلمـة سـترنا » ..

« لن يسترنا الا الاتفـاق .. ان نتفق » ..

« لنتفق اذن » ..

« أنـا غـير موافق » ..

« غـبى » ..

« الأسطى شمس صاحب فضـل على . تعلمت على يديـه صـنع طبالى الطعـام وقبقاب الحمـام » ..

« اذن علمـك كيف تأكـل وكيف تستحم ، علمك الحيـاة » .

بصيص ضـوء باهت نفـذ من خصاص النافذة ، ارتـوت عينـاه من جسدها شـبه العـارى الا من قميص نـوم شـفاف معلقـاً بشريطين رفيعين من الستان الأحمـر . بطرف اصبعها السبابة أزاحت احـد الشريطين .

« ساعدنى يارب ، مـاذا على أن افعـل ؟ » ..

طـال انتظارها ، لم اتقـدم . قـالت :

«ما عليك الا ان تزيـح الشريط الآخـر » .

بانفعـال عـلا صوتها :

« لن تهـون انوثتى على اكثـر ، لابد أن تسعى وتحـاول ، أن تفعل شيئاً . أرجوك لا تدعنى اشـعر بمهانة اكثر من ذلك » .

دارت حـول نفسها ثم وضعت كفى على كتفيها وانا اعلوها قليـلا ..

قـلت لهـا :

« أنت جميلة الجميلات .. صدقينى » .

« ثم مـاذا ؟ » ..

« يرغبك كل انسـان على هـذه الأرض » .

« وانت .. انت من يهمنى على هـذه الأرض » .

« لـن أقـــدر » .

« بمـاذا تبـرر ما انا فيـه الآن ؟ أتظن انك نبى مرســل ام تـرى لسـت كامل الرجـولة ؟ » .

هبطـا معـاً الى الأرض ، احتويت كفيهـا الملتهبتين بين كفيـه الباردتين . قـال لهـا :

« كـل مافى الأمـر اننى لسـت ممن ينكرون الجميـل . زوجك فنـان عندما كفوا عن تذوق الجمـال اهملوا الرجـل » ..

قالت بعـد شردة قصـيرة :

« عندما تزوجته كان من امهـر فنـانى الارابيسك . كنت اعشقه . اعشق فيـه الأسطى العـائد منتصرا كل ليلـة . الآن يعود خـائر القوى ، محبط الروح ، عاجزا عن حمل راسه » ..

فوجئت بالرجـل يقتحـم المغرفة ، الأسطى شمس عند الباب يتـأمل مشهد زوجته فى محاولة منهـا أن تسـتر جسدها . ظـل صامتاً متابعـاً ، يبـدو انـه شاهد وسمع ماكان ومنـذ فترة .

لمحت دمعـات تلمـع فى الظلمة . ظـل قابضاً على عينيه ، ادار ظهـره ، خـرج . اندفعت الى باب الشـقة ، سحبت مفتاح المحـل لأنـام فيـه الليلـة بعـد أن سمعته يقـول ، وهـو ما طمأننى :

« لولا جـدك الشيخ صالح ، صاحب الفضـل عـلى وعلى لحـم كتفى لكنت قتلتك ! » .

فى صـباح اليـوم الجـديد لم يقـدر يوسف على مخاطبـة الرجـل ولا على بقـائه فى المحـل .

القسم الرابع

الصيف الساخن

العـــودة

[١]

استقبلتنى الظلمــة والروائح الكريهة والغمــوض . عيون تتبعنى ، رؤوس تتلامس ، والسـن تتهامس . الطرقات مغطـاة بالأتربة ومعلبــات لم ارهــا من قبـل وأوراق فضية لامعــة ، صناديق خشبية مكتــوب عليهــا بالانجليزية ، ملابس داخلية حمراء اللــون .. اغلبهــا بدرجات اللون الأحمــر معلقة على الجدران . كلمــا اوغلت فى المساكن اشــعر بطرقاتها تضيق عــلى حتى كادت تقبض على عظــام صــدرى .

الأطفــال وحدهم يلعبون فى الطرقات .. اين جلسات النسوة وسـمر الرجــال ، الحجرات أكــاد لا ارى من بداخلها . بدات اختبــر ذاكرتى ، احــاول تذكــر الأسماء ، ابتسمت سعيدا أن احدهــم لم يتعرف على ، تمنيت لو ارتمى الى مرقدى الصلد دون ان يرنى أحدهــم .

بدات اركض ، تملأنى مشــاعر لا أعرف كنهها ، النظــرات غــير المحايدة بدات تتبعنى ، فجــاة التفت ، الأطفــال وزهــرة معهــم حــول ركبتى ، يتعمدون اعاقتى ، يتعلقون بى فى صــمت وكأنهم دربــوا على ذلك ، لعنتهــم .. ابــدا لم يتركونى ! .

انشــقت الأرض ، تذفت بــ « حســن لالا » ، شمروخ ، من خلفــه ، سعيت انــا اليهمــا ، تعلقت بهمــا . فــور تأكــد حسن من شخصيتى وتعــرفه على اشــار الى أعــلى بشىء مافى يده ، صرخ بصــوت عــال : « يوسف عبد الواحــد المنسى ياجماعة » !

التفت حــولى فــاذا بالحجرات المظلمة تضــاء بدرجــات

متفاوتة يعـلو صوت الهمهمات ، ينقلب زعيقـا وصراخا بحوارات وكلمات لم أتبينهـا . « المـكان كئيب يا حسـن » .

لم يعقب على كلماتى ، بعـد فترة قـال فى هـدوء :
« تعـال قابل المعلمة ، لو كنت صبرت لكان حالك تغير » .
وجـدتنى ابتسـم :

« أفهـم ان حـالك انت الآن ، غـير ماكان منـذ شهور » .
بثقـة عظيمة رد على وهـو يعبث فى ساعة معصمه : « طبعا » !

لمحت السـاعة جيـدا ، انهـا من الصنف الذى يضىء فى الظلمة ، ثم ضـغط على أحد الأزرار الجانبية الكثيرة .. دهشت :

« سـاعة تضىء ليـلا ، بهـا كـل هـذه الامكانات .. لمـاذا يا حسـن ؟! » .

سرقنى مشـهد الحجرات التى اضيئت بجانبى وأمـامى ، لمحت بعض الصناديق الخشبية والكرتونية واللفائف الطـويلة . تلك الحجـرة بالذات اعرفها واعرف اصحابها أم خليل وزوجها .. تسـاءلت :

« ما هـذا يا حسن يا اعـرج . حجرة أم خليل ... » .
قـاطعنى :

« أنت لم تـر شيئا ، انتظر وتعـال معى » ، ثم اخـرج علبـة سجائر اجنبيـة قـائلا :

« خـذ يا يوسف ، نظف صـدرك ! » .
« يانهارك الأسـود من النيـلة ؟!! » .

لم يترك لى فرصـة الحـوار اكثـر ممـا سبق ، دفعنى دفعـا امامه الى شـقة الأربعات الخاصة بالمعلمة أم وردة . استقبلتنى بترحاب زائـد وبأسئلة عـديدة ، لم تنتظـر ان أجيب على سـؤال واحـد منهـا .

شردت عنهـا بتأمل تلك اللفائف المبعثـرة والملابس المنثورة والصناديق التى لم تفتـح بعـد وحصـائر البلاستيك ، ومعلبات اللبـان والشيكولاتة وغيرهـا ، لم أفق الا على ضربة قوية على صـدرى من يدهـا الثقيلة ، ثم أزاحت راسى نحوهـا قائلة :

« حـيرم العضـل غاب على قدر ما غاب ، عاد فـل الفل . الدور والباقى عليك . انـا محتاجة جـدع افندى ونبيه مثلك . جهـز نفسك يا يوسف ، من باكـر سوف تسافر الى بور سعيد .

أنت نبيـه . بعـد زيارتين أو ثلاث سـوف تسافر وحدك ، فيمـا بعـد علمت أن حـيرم العضل عندما عـاد كان مهيئاً لارتكاب جريمة قتـل ، استقبلته أم وردة بكل ترحاب ، ادخلته غرفتها ، غلقت ابواب الشقة عليهما وحدهما ، خـرج آخـر النهـار من عندها حليق الذقن والشارب مرتدياً بذلـة جديدة وحـذاء اسود لامعـاً ومنديلا مدلى من جيب سترته . بعدهـا بات العضـل من رجالهـا المخلصين .

قبـل أن اترك شـقة المعلمة تأكـد لى بالقول منهـا وممن حضروا وبالفعل ممن جـاءوا لتسليم مبالغ كبـيرة واستلام بضائع كثـيرة . تأكـد لى أن أم وردة الدلالة باتت المعلمة أم وردة ، من انشط تجـار بضائع بور سعيد المهربة ، لم يقتصر نشاطها على المساكن واهلهـا انما امتـد الى شوارع القاهرة واحيائها الثرية ، بل وسوق الشوارببى . اصحاب محال شارع الشوارببى يعرفونها بالاسم ويطلبون منهـا البضائع بالمواصفات التى يرغبونها ! .

استيقظ فجـر اليوم الجديد ، حـك جبهته ، حاول استعادة شتات حواسه ، سعى أن يفصل بين ماهـو حلم وماهـو عليه الآن . تاهت رأسه منـه وغفـا يوسف فيمـا يشبه الاغماءة .

انتبـه على ما يشبه الفحيح ، هممات تعـلو بكلمات السباب

واللعنات ، الصـوت قـادم من خلف الحائل ، يعـلو ، يتضح ، الصق يوسف عينيـه على التوالى فى الثقب .

انـه صوت الأم ، ما كنت اسمعه من قبـل ، ما كانت تفعل ، وماذا حـدث .. ترى ماذا كان خـلال الشهور المـاضية ؟

تأكـد يوسف اكثـر . الصق اذنيـه ثم شاهد . احداهن تتلوى على الأرض ، عـارية الجسد بالرغـم من قميص النـوم الطويل ، مزقته الفتـاة من شـدة الألم وقـد حشرت فمها بقطعة من القمـاش .. تدلى الجـزء البـاقى أمامها . تبـدو كأنهـا تتعارك مع نفسها وقميصها .

يارب انهـا زينب صديقتى ! . الأم جلست متربعة عـلى الأرض ، تضرب بكفيها الأرض ثم تضربها فى بعضها ثم تفتحها الى السماء لاعنـة الأيام والدنيـا والجـيران ! .

حاول يوسف ان يعرف اكثر ، يسمع اكثـر ويرى . فوجىء انـه المعنى بالسباب واللعنات اسماً ومكاناً ضمن من لعنتهـم السيدة من سكان المساكن . تسـاءل يوسف :

« ربمـا تريد منى الدخول عليهن لاسعاف زينب ، لكن لم يطلبن منى ذلك ! » .

ظننت بمضى الوقت قـد تهـدأ ، لم تهـدأ ، مازالت . عندما احتجت شمعة صغيرة أضىء ليلتى السوداء لم تفتح تلك السيدة .. ولا بناتها الثلاث ، انـا فى انتظار اشـارة منهـا ، تطلب منى المسـاعدة اذن .

نهض يوسف محـاولا أن يشغل نفسه وعقـله . ألقى بنصف جسـده من الطـاقة المطلة على النسـوة حـول صنبور الميـاه الوحيـد يتشاجرن . عـاد وارتدى حـذاءه ، بتلك الخطوة اصبح جاهـزا للسفر الى بور سعيد لأول مـرة فى حياته ، لعلهـا لن

تكــون الأخــيرة . هــذا هــو بالضبط ما شغله الآن : « هــل ستكون تلك الزيارة الأولى أم الأخــيرة ؟! » .

الحقيقة ، هــذه الفتــاة بالذات تشغلنى ، لا اقــدر على ما يصيبها من ســوء . مــاذا افعــل بالضبط ؟ لعلنى اكشف لهن ســر ثقبى السحرى ، تــرى مــاذا ستكون النتيجة لــو عرفن أننى متــابع لهــن من خــلال الثقب ؟! . عــاد والقى بعينــه اليمنى ، لمــح الأخت الكبــرى مندفعة نحــو أمهــا قــالت :

« بالأمس الصيدلى قــال لى انقلوها المستشفى ، وان الدواء الذى اعطــاه لى مؤقت ولن يشفيها .. وهــذا ما حدث ؟ » . الأم مازالت على حالهــا ، تضرب الأرض ، وتتضرع الى الســماء ولكن برتــم حــركة اسرع . اخــيرا نطقت قــائلة :

« ومــاذا سنقول فى المستشفى .. يا مصيبتى ؟ » .

ردت الابنــة بلا تفكــير :

« زينب ، زينب هى الأهــم الآن من اى اعتبــار » ..

ارتمى يوسف الى مرقــده شبه العــاجز عن المتابعة . تابع الصمت المطبق خــلف الحــائل الا من نواح الأم .. اخيرا انتبــه على صــوت الابنــة « زينب » قــالت :

« كان ذلك منــذ شهور ، فهمى ابو كــلام كان يشترى لى الجيلاتى ، ايام قلت لك فيهــا ازور السيدة عائشــة ، كنت اقابله اخــذنى لكشك احــد الخفــر فى مشروع تحت الانشــاء فــوق هضبة المقطــم .. وكان ما كان ، سامحينى ... ســا ... » .

لم يعــد يوسف قــادرا على متابعة ما سمع ولا ان يسمع اكثــر . ذهــولا ضرب رأسه مرتين فى مرقــده الصلد ، عض كــلوة يــده ثم اندفع يعــدو الى حيث المعلمة أم وردة مرددا الاســم .. « فهمى .. فهمى ابو كــلام ، معقول يكون فهمى .. فهمى أبو كــلام « .

القطـــار

[١]

استقبلتنى ام وردة عنـد مدخـل شقتها . بدت كمـا تركتها بليلة الأمس .. منتبهـه ، زاعقـة الصـوت .. قـالت :

« مـاذا بك ، شكلك خـرع يا جـدع انت ؟! » .

الـم تنـم الليلة ؟! .. هـكذا المساكن .. فى الشـتاء باردة والأمطـار تغرقنا والرطـوبة تأكـل من عظامنا ، فى الصيف يقتلنا السـهد والخنقـة .. بادرتها بمـا يشغلنى اكثـر ، لعلنى أسعى للهـــرب :

« لقـد حـان ميعـاد السـفر .. هيـا بنـا » ..

« ليس قبل سـاعة كاملة ياجـدع ، تعـال اشرب الشاى ، ادخـل » دعـوت ربى الا تتركنى وحـدى . زينب مريضة ، بـل لعلهـا حـامل ، حملت سفاحاً وممن .. من أبـو كـلام ؟!

انتبهت لأحدهم .. دخـل على فى الحجـرة وقـد اختفت راسـه المحاطة بالمنشفة ، ما أن رفعهـا ، بان لى عيانا نياناً .. ذهــولا نطقت :

« فهمى المشـد .. فهمى ابو كلام مـرة اخـرى ! » .

نظـر الى ببسمة باهتـة ردد جملتى : « فهمى ابو كلام مرة اخـرى ؟! » . ببـرود وصـل الى حـد الفتور نظر الى المعلمة ام وردة التى اقتربت من راسى مبتسمة :

« فى القطـار سـوف .. يشرح لك » .

ثم أدار فهمى وجهـه الى أم وردة ، زاعقـاً :

« لمـاذا لم تخبريه اننـا تزوجنـا يا معلمـة .. يوسـف صـديقى ؟؟ » .

رصيف القطار المتجه الى بور سعيد يكاد لا يرى ، ارتسمت حدوده بالأجساد المتصقة ، المشهد غير مبرر فى راس يوسف .. تساءل .

« هل اصبحت بور سعيد مصيفاً هاماً الى هذه الدرجة ؟! » .

احدهم لم يرد . تابع :

« لكن هى بور سعيد اجمل من الاسكندرية لهذه الدرجة ؟! » .

بدا يوسف وكأنه طفل يكتشف العالم ، لا يكف عن السؤال ولا التعبير عن الدهشة التى يستشعرها . امام اسئلته وحيرته تلك اشارت المعلمة الى فهمى قائلة :

« فهمه يا فهمى » ..

تعلق يوسف بشفتى فهمى المشرئب الراس والرقبة مثل الآخرين نحو القطار القادم من الورشة من بعيد . الآخرون من حولهم يلقون التعليمات الأخيرة لبعضهم البعض : « اصعد فورا قبل ان يقف القطار حتى يمكننا الجلوس على مقعد » . « تعال ، اجر بسرعة ، اقفز الى العربات الأخيرة ، اقل ازدحاماً » .. « سوف أعتلى سطح القطار لن أقفز .. ! » .

اغلب الأجساد المتلاصقة المزدحمة كانت داخل القطار قبل ن يهمد تماماً أمام الرصيف .

وجد يوسف نفسه مندفعاً معهم وبينهم ، لم يفكر لحظة فيما يجب أن يفعله الا عندما صعد واكتشف ان كل المقاعد محجوزة . فيما بعد علم أن البعض يقضى ليلته فى القطار قبل الرحيل ، يحجزه من الورشة !

تقدمتهما المعلمة حتى كان النداء المنقذ ، صوت « على عجوة » صائحاً ، نجح ان يحجز لهم كنبة كاملة وله أجرته على

ذلك العمـل الهـام . ابتسموا سعداء بمـا تم ، امـا فهمى ابو كـلام فقـد قهقـه ، لم يعـد اسماً على مسمى فقـد فهمى النطق فى حضـور المعلمة ، هذا ما تأكـد منـه يوسف حالا .. لا يتحدث الا باشـارة منهـا وبموافقتها !

الآن انشغلت عنهمـا بفتـح حقيبة صغيرة ، افرغت ما بها ، صنعت مائـدة صغيرة قـالت : « بسـم الله يا جمـاعة » .

[٣]

قبـل أن يصـل القطار الى مشارف بور سعيد ، كان فهمى قـد انتهى من سـرد تفاصيل كثيرة عمـا كان أثنـاء فترة غيابى . قـال ضمن ما قـال :

« كل اهـل المساكن تعمـل الآن لحساب هـذه السيدة . زوجتى .. المعلمة أم وردة » وكل السكان يعملون لحساب هـذه السيدة ايضـاً . « عـلى عجـوة » .. يحجز لنـا القطـار ، « المعـلم عجـور » ما عـاد بائعـاً جـوالا ، عربته اصـبحت وسيلة لنقـل البضائع وتوزيعها ، « أم عنتـر » ، « وأم خليل » أصبحن دلالات صغيرات فى حوارى منطقة القلعـة ، تفوقت عليهن جميعـاً .. « سـونة » اصبحت صاحبة الصفقات الكبـيرة .. زبائنهـا لا ينقطعون بسياراتهم الفارهة .. بينى وبينك لم يعـد احـد من سـكان المساكن يسـأل الى اين ولـمن ولمـاذا تدخـل تلك السيارات ؟!! . الشيخ طـه رفض العمـل معنـا ، بارت بضاعته وكـف السكان سؤاله فى أمورهم ، لا فتـح مندل ولا قراءة كف .. وفرشة الأسنان بدلا من السواك .. زهق الرجل ، سكن المقـابر ، مقـابر باب الوزير . تابـع فهمى بعـد فترة صـمت وقـد أشـعل سيجارة :

« شمروخ وحسن الأعـرج ناضورجية المساكن ، من باب

الحـرص والحيطة .. الخلاصة من تعـاون معنـا ، اقتصـد مع المعلمة ربـح وكسب ومن رفض وركب يافوخـه على حـاله .. عـدم بعيـد عنـك » .

« لكن اسمع يا فهمى ، ما حكاية حيرم العضل ، كيف ..؟ » .

قاطعنى قـائلا :

« عاقل ، طبعاً عاقل ، الدنيا فى تغيـير .. » .

همست الى اذنـه :

« اذن بصراحة ، كيف تبـرر ما حدث منـك خـلال الفتـرة السـابقة ؟ » ..

اسمع يا يوسف . أنـا اعـرف « ريان اسماعيل » ، أول من رفـع عـلم مصرى على الضفة الشرقية للقنـاه . صـعد عشرين متـرا من السـاتر التـرابى بالرغـم من اصابته بلغـم ارضى .. صعد ، لم يستشهد الا بعد ن رشـق أول علم مصرى .

وايضـاً أعرف « سـيد سوكة » صاحب محـل الاكسسوار فى القلعـة ، كنت كلمتك عنـه . ريان وسيد وانـا جمعتنا قروانة واحـدة ، وحاربنا . اجدعنـا واكثرنا اخلاصاً مـات . اكثرنا فهلوة وخسـة وهـرب من عـز الحـرب ناجح وغنى بعدما ادعى الجنـون ... » .

« مـاذا تريـد ان تقـول يا فهمى ؟ » .

« الحـرب التى جمعتنا ، اخـذت افضلنا . صـابر فى الأول وريان فى الآخـر .. وغيرهما ، ثم انتهت » .

« لعلهـا تندلع ثانيـة يا فهمى ، اسبابها مازالت » ..

« ربمـا .. لكن ليس معى ، لقـد حاربت فى ٦٧ و ٧٣ والآن نحن فى عـام ٧٧ ، لا اظـن أن عمـرى يصلح للتجنيد مرة أخرى ،

مؤكد الحرب انتهت بالنسبة لى على الاقل ، يجب عمل ما ينفعنى فى ايامى المقبلة » .

لم اجد ما ارد به .

بعد فترة صمت سالته بالحاح :

« ماذا عن زينب يا فهمى ؟ » .

انفعل فهمى كثيرا ، بعد فترة ليست بالقصيرة رد قائلا :

« عن هذا الموضوع لا تسال ، لن اسمح لك .. مهما كانت بيننا من روابط .. فاهمنى ! » .

الإنســحاق

[١]

مدينة بور سعيد محشــوة بالأجساد وبالأشياء ، ضــاقت شوارعها واكتظت . منـذ ان هبطوا رصيف محطــة الســك الحديدية استقبلهم جنود الشرطة بفظاظة وبعصى الخيزران يلهبون بهــا من يشــرد عن مسيرة القطيــع المندفع ولمــن يتلــكأ .

أفــواه مفتوحة تقــذف صراخات وآهــات ودعوات وسؤالا ، دومــاً هناك من يسال عن موقع الأسواق وطريقة تهريب البضائع من موظفى الجمارك ! وصوت الشجار حــول الأبواب والنوافــذ عــال . العائدون يندفعون أمــلا فى امتلاك مقعــد بالقطار العائد الى القاهــرة ، انهم اثقــل حركة بمــا يحملون من لفائف وأثقــال وهمــوم . اكثــر ما لفت نظرى يومهــا تلك السيدة التى تحمــل ولدهــا فى حــرص وتؤوده ، اقتربت من احدى النوافذ ، القت بمــا تحمل الى أحدهم ، نجــح فى اصطياد مقعــد . لعنتها ولعنت الزحــام الذى جعلها تفعــل بوليدها ما فعلت فى قسوة وغلظــة ، فضحك فهمى المتــابع :

« انظر الى الرجل داخل القطار ، تأمل ما القت به السيدة » .

لم اضحك ولم أنطق عندما تبين لى أن ما قذفت بــه السيدة ماكينة خياطة ، لم ينتظر فهمي سؤالا منى ، قــال :

« فعلت ما فعلته حتى تهــرب من الجمــارك » .

بعــد فتــرة صمت ، تابــع فهمى :

« هنا لا يجب عليك الا تدهش ، أنت لم تر شيئاً .. انتظر » .

تقدمتهما المعلمة ، ســاروا جميعاً فى الشوارع المزدحمة غير متجاورين . البيــع والشراء بصوت عــال وبسرعة ، دوماً السعر المعروض فى الأسواق ثابت فى كــل المدينــة .

نطق يوسف مــرة متسائلا عن ذلك الشىء الملــقى وســط المــأكولات . اجــابه فهمى وقــد خبــر المدينة وكشــف ســر أسرارها : « انــه ابو فــروة يا يوسف ! » . تعــرف على احــد البــاعة لدقائق قليلة ســأله عن نفســه : « انــا موظف فى المنطقة التعليمية » . كانت الســاعة تشير الى الحادية عشرة صباحاً . فهــم البــائع : « كل البــاعة او قــل اغلبهم امــا موظفون او طلبــة » لم يــزد البــائع اكثــر ، انشغل مع آخرين . تابــع معهمــا وبعــد فترة مــال الى اذن فهمى : « ماهى حكاية الصابون فى تلك البلدة .. لمــاذا كل تلك المكنيات الهــائلة من المنظفــات والصابون البــودرة ؟ لمــاذا ؟! » . هــذه المــرة لم يرد فهمى فقــد سبقتهما المعلمة بمسافة طويلة ، أسرعــا ليلحقا بهــا .

[٢]

دفعت المعلمة البــاب . مــروا خــلال ممــر طويل داخــل الشــقة الفخمــة الأثاث المكيفــة الهــواء . استقبلها الرجــل مرحباً بحفاوة غير تقليدية وبرائحته العطرة ولهجته البور سعيدية . اقترب منهــا حتى كــاد ان يلتصق بهــا . لمــح الضيف الجديد ، قــالت .. « انــه يوسف المنسى من رجــالتى يابيــك » .

بهــدوء فتــح المينى بــار الكائن بجــوار مكتبه العريض ، قــدم علبــة مستوردة من المشروبات الغــازية معتذرا عن غياب السكرتيرة فى ذلك اليوم . بسرعة دخلت المعلمة فى حديث العمل .. الأصناف المطلوبة والكميات والأسعار ، طــال مناقشة الاســعار فقــال لهـــا :

« لا حل معك الا أن تزيدى الكميات » .

« العين بصيرة ولا تنسى اننى الآن بعيدة عن اعين الحكومة والضرائب » .

« ولو .. كله له حل ، المحل سيكون لك المركز ولنا التصرف بعد ذلك » .

« أين ؟ ومن أين ادفع الآلاف المطلوبة ؟! » .

أدار الرجل مقعده الحلزونى ، صمت وهو يشعل البايب ، ثم قال بثقة :

« موضوع المكتبة ، فى شارع الشواربى مكتبة صاحبها عارضها للبيع » .

« يدى على كتفك .. من أين ايضاً ؟! » .

« سوف أدفع انا المبلغ كله ، اكتب عليك كمبيالات بالمبلغ ، ويصبح لى مركز فى القاهرة ، يهمنى يكون باسم أناس جديدة ، ونبدأ معاً الشغل الرائق » .

« اشترى أنت اذن ، لم اللف والدوران » ؟!

شرد الرجل فى مشهد البحر الهادىء هناك فى مواجهة المكتب من خلال النافذة . أخيراً همس لها بثقة قائلا :

« اطمئنى ، كله قانونى . ما نفعله لاهو بيع حشيش ولاهى تجارة فى الممنوع يا أم وردة » .

« لا سمح الله يابيك » .

« المهم الآن قابلى صاحب محل [اس . اس] عند مدخل الشواربى ، سوف يخبرك بكل التفاصيل » .

« ومشوار اليوم » ..

« بلا لعب عيال ، انزلى نفذى ما اتفقنا عليه ، انا منتظر تليفون منك » .

أشارت الى يوسف قائلة :

« على يوسف افنـدى تخليص هـذا الموضوع ، متعـلم ونبيـه ، لكن من النـوع الساكت » .

احتقنت اذنـا الشـاب ، طأطأ الراس منتبهاً للحوار بينهما ورأيهما فى خـلق الله وافضلهم ... السهن ، الساكت ، الداهية ، الخبيث ، الهليهلى ، المدهول ، المهموم ، المتنمـر ، المحتاس ، الدقـرمة ، البـلوة ، الفهـلوى ، المـدردح ، الحـرك ، اللهلوبة ، الناصـح الخيبـة .. قبـل أن ينتهيا كانت وجبـة السـمك المطبوخة أمامهـم حسبما وعـد البيـك .

« السمك صغير ، لكن ثمنـه مرتفـع يا معلمـة ! » .

« ...... » احدهـم لم يعـلق .

« الكيلو بثلاثة ونصف جنيـه ، نصف السمكة بطـروخ ، مخصوص لـكم » .

شكرته المعلمة بالنيـابة ، وغادروا المكتب .. دلفت أم وردة انى داخـل احـدى محـال الملابس الجاهزة ، أشارت الى البائع والى يوسف الذى همست فى أذنـه قـائلة :

« الق بمـا تلبس فى غرفة الملابس واخرج علينا بالجديد » .

ذهـولا نفـذ وخـرج معهمـا يوسف ، ملأته مشاعر لا يعرف كنههـا . حـرارة الشمس توخـز كل خلية فيـه ، وسط الزحام بملابسه الجـديدة تابـع المسـير مكبلة بمشاعر الزهق والانسحاق حتى وصـلوا جميعـاً موقف الاتوبيسات .

« ومـاذا بعـد ؟! » تشرنق يوسف بسؤاله حتى عـاد الى محبسه راغبـاً أن يقضى بقيـة يومـه وحـده .

الصق عينـه بالثقب ، عـاد والصق الأخرى رافضـاً أن يصدق ما يـرى وما يسمع . آهـات مكتومة ولسـان لا يكف عن النـواح لاحـدى شقيقات زينب ، تقـول :

« ماتت ، ماتت زينب ، معقول ! » .

كررتها الشقيقة فى آلية وبصوت محايد لا يعلو ولا يخبو . اندفع يوسف الى باب حجرتها يسألها ، فتحت له ، قالت ما قالته ولم تجب على سؤاله ، صفقت الباب فى وجهه .

اندفع يعدو الى شقة المعلمة نحو رقبة فهمى ، تعلق بها لاعناً جد اجداده ، قرر أن يقتله حالا مثلما قتل زينب !

لم تنم عيون سكان المساكن ، اقتحموا الحجرة ، انتظروا الام وقد ذهبت لتقبر ابنتها ، بعضهم بحث عنها فى مقابر باب الوزير ، وبعضهم احضر المقرىء جهزوا مكاناً للعزاء فيما بينهم ، الشيخ طه استقبلها فى المقابر حيث يقيم وعمل اللازم . أما فهمي فلم يجد من يسمع منه حتى زوجته المعلمة ام وردة أمرته ان يقضى ليلته خارج شقتها ، لم يجد الا محبس يوسف يرتمي فيه . استقبله الصديق القديم بصمت وجفاء .

وهـــم الإنفـــلات !

اخلصت للدنيــا الجديدة ، رشقت الأيام بصدرى وبنعـلى حذائى ، خــلال اقصر الأزمــان حققت الكثـير واستحوزت على امــوال كثـيرة ، نجحت أن أعــرف ســر اللعبة ، كسبت ثقــة المعلمة ومن هــم اكبــر منهــا فى بور سعيد .

بعــد مفاوضات وقعت عقد شراء مكتبة « راشــد معتوق » ، كنت على راس من افتتحوا البوتيك « بوتيــك زهـــرة » .

تعمــدت استقبال « أمــل » بكل الجفــاء والفتور عمــدا ، كلما ذهبت الى ابيهــا للاتفاق على مزيــد من تفاصيل التعاقد . اتجاهل حوارها اذا ما شاركتنا الحديث ، كانت تقــول :

« أبى مــل المنطقــة وقــد ازدحمت ، كــره جيرانه وقــد تبدلوا عن عرفهــم ، من كان يعرفهم باعــوا محلاتهم ومن بقى انقلب كيــانه ... » .

يتعلق الأب بكلماتها تلك ويقص ماكان بينــه وبين جــيرانه من اواصر الــود والوصال أمــا وقــد انقطع ، « لم يعــد العمل يلذ » هــكذا عبــر الرجــل عن عمــله فى المكتبة .. « كأن الناس كفت القــراءة وسماع الموسيقى ، كأنهم عــرايا حفــاة .. كــل همهــم الأحذية والملابس ، لا يشترون غيرهــا » . لعــلى أفهــم ما يعنيه الرجــل وابنتــه ولكنى متعمدا لا اوافق متابعة حديثهما .

تعمدت أمــل ذات مــرة استقبالى عند مدخــل الشــارع ، حاولت ان اتجاهلها ، فشلت ، لم يكن فشلى بسببها ، لم استطع مواصلة تجاهلى لعينيهــا المتابعتين لخطواتى القصيرة الضيقة . كان لهــا ما أرادت . سرعان ما انداحت مشاعرنا القديمة خاصــة

وقـد لمحت يدهـا اليمنى بلا دبلـة الخطوبة نظـرت الى اليسرى لم اجدهـا . بثقـة قـالت :

« طلقت منـذ فتـرة » ..

« لمـاذا ؟! » .

« ببساطة لانـه مغرور ، انانى ، مدلل ... وغبى » .

« لكنـه يملك سيارة وشـقة ... بل فيـللا » .

« لـو كنت تعرفنى ، لفهمت لمـاذا طلبت الطـلاق » .

« اليس غنيـاً ؟! » .

« واضـح أنك تدعى الغبـاء يا يوسف » ..

طلبت منهـا ان نجلس معـاً فى حديقة جروبى القريبة ، لم ترفض ولم توافق .. كلانا وجـد نفسه يدير وجهـه ناحيـة الحديقـة ، كلانا يضـع رفيقـه فى دائـرة رؤيته وان لم ينظـر نحـو رفيقـه مبـاشرة .

فـورا انشغلت امـل بقطـة تحاول تسلق السور القـريب من المنضـدة التى جلسـا اليهـا ، سرعان ما بات الحـديث حـوارا من طـرف واحـد . وجدتنى اتحـدث وحـدى الى نفسى وعن نفسى وقـد بدأت امتـلاك المـال والمـأوى .

تعمـدت أن استمر وان اسرد احلامى قبـل حقيقة ما أملك بالرغـم من تلك البسمة الباهتة التى هى لا اكثـر من تقلصات فى سحنتها المحـايدة .

بعـد فتـرة طلبت منى اشترى لهـا « اسبرين » واشارت للنـادل ان يحضر فنجـان قهـوة دوبـل .

قـلت لهـا :

« انـا الآن يا أمـل خبرت الدنيـا ، فهمت اللعبـة » .

« ايـة لعبـة » .

« انـا الآن عرفت الدنيا من الشوارع ، عرفت مالم اعرفه من الورق . عرفت لعبـة الدنيا .. الغنى والفقـر ، الشـارع المـأوى والفندق المقـام .. وعرفت .. » .

« مـاذا عـرفت ؟ » .

« صدقينى ، قطـار بور سعيد وحـده بنصف كتب مكتبـة ابيـك ، فيـه رايت من هـم على اعتاب الدنيـا ، رايت الموظف الذى يذهب الى بور سعيد مـرة كل شـهر او اقـل لشراء بعض البضائع ، يعـود ليبيعها الى زملائه ويربح ، هـالنى أن رايت فيهـم رجـالا عسكريين ورجـال قضـاء » .

« ومـاذا أيضـا ؟ » ..

« رايت الحـرفى الذى يذهب لشراء لوازم محـله الصغير . رايت العروس لشراء لوازم جهازها قبـل الزفاف .. مع كـل هؤلاء وغيرهم .. ما يحدث فى رحـلة العـودة وما يفعلونه للتحايل والهـروب من رجـال الجمارك حـدوتة » .

« مـاذا يحـدث ؟ » ..

« وسـط تهليل وصياح الرفـاق ، يقف كل منهم وبالدور ينزعون من حول اجسادهم ما أخفوه عن اعين رجال الجمارك .. وفى كل الأحوال لابد أن يعتلى المقعـد وسـط التصفيق والفرحة . المؤلم أن كل هـؤلاء السعداء يهربون ماهـو ضرورى لهـم . ولكن الذين يهربون للاتجار .. هنـا اللعب الثقيـل ، هنـا الدنيـا الجـديدة يا حبيبتى ! » .

« وما الدنيـا الجـديدة ؟ » ..

« التربيطات ، التهريب بالآلاف عبـر البحيرة والسيارات حتى داخـل سيارات شخصيات خطـيرة جـدا ، لا يخطـر على بالك اسـم أحدهـم ولن تصـدقى » .

« ايــة لعبــة تلك التى جعلتنى اراك على تلك الصــورة بعــد انقطــاع ؟! ايــة دنيــا هــذه ؟ التى جعلتنى اقبل الزواج ممن لا احــب وبأســاً فيمن احــب ؟ يا خســارة يا يوســف .. لا اريــد أن اعرفها ، لا اللعبــة ولا الدنيــا الجــديدة » .

قالتهــا امــل وصمتت .

لم يجــد يوسف ما يتــابع بــه ، صمت ايضــاً . قبــل ان يتركــا المنضدة قــال لهــا :

« قــررت الآن ان اغفــر لك واطلب الزواج منك . قريبــاً جــدا ســوف امتلك كل ما تحلمين بــه ! » .

لم تــرد أمــل ، اكتفت بالانشغال بتلك القطــة التى مازالت تحــاول اعتــلاء الســور امامهــا ، فى كل مــرة تسقط ، وتفشل وتحــاول من جــديد !

القـــــرار

[١]

حـوائط المساكن الخشبية التى اكلتها الحـرارة والرطوبة تشققت واكتست بورق الحـائط الذى كثـيرا ما يتمزق فى اجـزاء منـه وتدلى هنـا او هنـاك ، فيمـا يعبث الأطفـال ويلطخونها بالأحبـار والأصباغ والطـين .

كمـا اكتست اجســاد قاطنى المساكن بهيئة جـديدة وان بـدا متناقضاً ، من الملابس المستوردة المستعملة سـلفاً والتى ابتاعوها من المعلمـة . البنطلونات الجينز والجوارب النايلون ، وامتلأت أحبـال نشر الغسيل بالملابس الداخلية النايلون وخاصة الأحمـر منهـا ودرجاته « انجليزى ـ فوشيا ـ دم الغـزال ـ الطرابيشى ... وغيرهـا » .

اكتست الطرقات الضيقة بمعلبات الكمبوت الفارغة واغلفة قوالب الشيكولاتة واللبـان .

المساكن باتت خليـة نشطة ، منهـم من تفـرغ للعمـل مع المعلمة ومنهـم من يعـاون ولـه أجـرة ، اقلهم عمـلا من يجعل من حجرته مخزناً او من نفســه جمـالا .

لم تعـد الألسن تلـوك سـيرة سـونة الأولى ولا ما استجد منهـا بعدما أصبحت السيارات تدخـل وتخـرج فـلا من متسائل ولا من مجيب . سهراتهم حـول الجـوزة لم تعـد تخـلو من الغرباء وتعقـد حولها الصفقات والتشاور بشـأن كل ما استجد من احكامات جـديدة او قوانين او اجراءات تحـاول الحكومة مجرد المحاولة لتنفيذها . انتبهوا مـرة الى ضرورة استخدام طرق جديدة

للتهـرب من الاجراءات الجـديدة ، ليلتها قـدم احدهم منتفـخ الأوداج محتقن البشرة ، قـال لهـم :

« كلـه لعب صـغار . المهـم فى الثقيل .. وعندى انـا ، (عرفان بيـك) جاهـز بالمبلغ على اتفاق يوسف ، خمسين الفـاً يا معلمـة » .

هللت ام وردة قـائلة :

« البشائر هـلت يا جماعة ، والله فى سـماه لأزغـرد » ..

انتشر الخبـر استيقظت المساكن كلهـا ، من جـديد بداوا يومهـم .

أوضـح فهمى صعوبة المـامورية الجديدة . بحسم قالت : « تصرف يا فهمى .. تفضـل » ، فى الطريق المـائل الى العتمـة نطق فهمى وكـأنه يحـادث نفسـه :

« هـذه المـرأة تذكرنى بأيام الجيش . عندما كان الضابط يأمرنا بالمستحيل يختمهـا بكلمة واحـدة .. تصرف ! » .

ضحك كمـا لم يضحك من قبـل . تمتـم يوسف :

« من يراك الآن يا فهمى يؤكـد انك نسيت الجيش وأيامه ، يقـول انك تغـيرت و .... » .

قاطعـه فهمى زاعقـاً :

« لا تنطقها ، اياك . لم أنس ولن انسى . بدى اعيش ، كـل طمعى فى الدنيـا انى اعيش .. لقمـة وهـدمة ، حقى ! » .

اختنقت الكلمات بين شفتيه . كف البـوح حتى افترقا ودخل كلاهما الى مرقـده .

لم يغفـل يوسف حتى كمـا يخبرها كل ليلـة .. « هانت يا امـل ، لن يكون لك معى خيـار ، عبرت حـد الفقـر ، انى

اعتـلى الآن سلم الثـراء ، وضعت قدمى على طريقه .. ما رايك .. تكلمى ؟ ».

انتبـه وقـد ضرب راسه فى مرقـده الصـلد .. صـرخ متألمـاً ... « آه » .

[٢]

لم يعـد يوسف يذهب الى المساكن الا مضطرا لعمـل او لتعليمات جـديدة من المعلمة التى شعرت بحاجتها المـاسة الى عقلية ذلك الشـاب الطموح . بذكائه استطاع فى فتـرة قصيرة أن يتعـاقد باسمه ، حقـاً على صفقات صـغيرة الا انهـا مربحة واكسبته احساساً بالاستقلال واقتحـام السوق وحده . استأجر احـدى الشقق المناسبة ، وضـع فيهـا اثاثـاً فخمـاً يليق ببشائر رجـل الأعمال الجـديد .

اليـوم ذهب الى المساكن ، استقبله صراخ احداهن ، هرع من هرعوا ، كانت أم خليـل تولول وتلطـم الخدين بجوار زوجها المسـن البليد السحنة الصامت . عرفوا الحقيقة .. حمـل ام خليـل حمـل كاذب بعـد ان ظلت لعشرة شهور فى إنتظار المولود الجـديد · ذهبت المستشفى مستفسرة حقيقة الأمـر . اخبروها ، لم تجـد الا الولولة واللطـم .

احدهم لم يجـد ما يتفوه بـه معزياً ، وجدها ظلت تـردد اكثـر الكلمات احساساً بالخيبة وانعدام الأمـل .. « وياليته ما كـان ولا كـان » ..

بهـدوء انسحب يوسف ، خـرج من الحجرة ومن المساكن كلهـا دون ان يتحادث مع المعلمة فيما قـدم بشأنه . لا يدرى كيف انتقلت اليـه خيبة الأمـل بتلك السرعة ولا يدرى الى أين يذهب . منـذ ساعات قليلة اكـدت لـه امـل الحبيبة ـ التى كانت ـ رأيها الذى لا رجعـة فيـه .

« يا يوسف لـن اتزوجـك » ..

« الآن امتلكت الشقة والعمـل و .... » .

« حتى ولو كانت شقتك قصـرا » ..

« لمـــاذا ؟! » ..

« لسبب بسيط ارجـو أن تفهمـه » .

« ماهـــو ؟! » ..

« يوسف الذى اعـرف ليس امامى ، يوسف الذى احببت ليس فيـك ، ما عـدت كمـا عرفتك » ..

لم تـزد أكثـر ، تركته وغربت ، قبـل أن تبعـد كثيرا مالت بجذعها محـذرة ايـاه الا يتصـل بهـا والا يحـاول .

حضرت المساكن اشـغل نفسى ، ازددت همـا وغمـا .. همس بهـا الى اذنيه وهـو يخـرج حـذاءه الكـالح الى حيث لا يدرى . لا يبغى العـودة الى الشـقة ولم يعـد لـه مكانة فى المسـاكن .

دلف الى شارع رئيسى هناك ، لمـح لافتة معلقة « تكيـة المولودية » . كثـيرا ما عبـر ذلك الشـارع من قبـل ، لم يلتفت الى تلك اللافتة ولا الى هـذا المكان .. انتابته رغبـة خفيـة أن يدخله ، جعلته يعبـر باب التكية المفتوح لعله يسرى عن نفسـه .

استقبله ذلك الممدود الذراعين الطويلتين بجـوار جسـده الطـويل النحيف وقـد ارتدى الاسمال والخـرق ، فى طـرف احداهما سيجارة وفى الأخـرى سيجارة لم يشعلها بعـد .

رفـع يوسف راسـه ، تأمـل الرجـل مليـا .. اشعث الشـعر والشارب ، كثيف الحاجبين ، غليظ الشفتين ، طليق اللحيـة . بلا كلمة واحـدة مـد الرجل يـده الى القادم بالسيجارة المطفـأة . اشعلها يوسف وسـار خلفه ، لا يدرى الى أين ؟! .

تنبعث من الرجـل رائحة مقــززة ، يعتلى مركوباً باليـاً وقـد بدت الشقوق فى كعبى قدميـه ، فجـأة أدار رأسه قائلا :

« أنـا آخـر دراويش سيدنا جـلال الدين الرومى » .

كـانا قـد عبـرا الممـر الضيق الرطب وقـد علقته الفطر بألوانها المقـززة ورائحتها الغامضة . طلعـا الى ساحة واسعة وقـد غطتها الحشائش الرمادية وسـط الأشجار المميـزة وقـد نضحت بالعجـز والكبـر والجفاف فقـدت أوراقهـا ونضارتها .

وقف الدرويش مشـيرا الى مبنى هنـاك :

« هـذا البنـاء عمـره أربعة قـرون تقريباً ، تـم عـام ١٠٠٢ هـ . أفندية الآثـار قالوا ١٠٠٥ هجرية لا يهـم » .

تابـع ثانيـة وكـأنه تذكـر أمـرا :

« هنـا حارب سيدنا السلطان سليم الأول ! ، جمع الجنـد البرتغال وحاربوا معـه من هنـا لكنه هـزم ، اعتمد على غـير المصريين يا أفندى ، صدقنى ، لكن تفـرق يا سيدنا الأفندى تكون سنة ١٠٠٢ هجرية أو سنة ١٠٠٥ هجرية .. بذمتك تفرق ؟ » .

اقترب من عينى يوسف محدقـاً ..

« السلطان سليم هـرب الى هنـا وحارب ولم يستسلم ، لكنه انهـزم .. قـدر ومكتوب » ..

جلسـا على الأريكة الخشبية المتهالكة .. تابـع الكـلام وحـــده :

« تشرب شـاى » ؟

دون أن يســمع ردا ، نهض يجهـز الشـاى .. أيقن يوسف أنـه فى حضرة حـارس التكيـة وتاريخها ، يجب عليـه أن يسمع منـه فقـط .. ففعـل !

احضر لـه الشـاى الغامق اللون ، القليل الكميـة ، قـدم الكـوب الصغير النحاسى وهـو يتـابع عـرض خبرته :

« افندية زمـان جعلوا هـذا المبنى سكن للمسنين ، حتى اهلـكوه » ..

قبـل أن يحتسى شربة واحـدة من الشـاى ، نهض يوسف معـه وسمع منـه :

« هـذا المبنى اسـمه (السـمع خـانة) .. سـموها المسرح .. خطـأ » .

بـدأ يوسف يسمع اصـداء انفاسه تلهث . رائحة المـكان المغلق الرطب نفـاذه ، ليس لهـا مثيـل . بـدأ ينفـر كسيرته الأولى فى المحبس . « هاهى الحلقـة . هنـا كان يقف الدراويش للذكـر والرقص » .

تابـع وحـده بصوت حـاد محـدد :

« الذكـر عبـادة يا افنـدى » ..

وافقـه يوسف دون أن ينطق . الرجل أشـار الى هناك :

« هـاك المحراب يعـلو الحلقة ، للحريم ، وللفـرقة ، كانت من ثلاثـة رجـال لقـرع الرق وواحد لعـزف النـاى » .

تقدمهـم الرجـل الى منتصف الحلقـة :

« هنـا يقف ثلاثون درويشاً يذكرون ويرقصون . رئيسهم مكانى هاهنـا .. تعـال جـرب الوقفـة الشريفة » .

بلا تفكير ولا تردد تقـدم يوسف الى جـوار الدرويش . صوت انفاسه يعـلو ، اصـداء همهمات الرجـل يسمعها عشرات مردودة ، تأمـل الحوائط من حـوله والسـور الخشبى المحيـط بهمـا . تصلبت عيناه الى حيث الغـرفة تعزف . سمعهم يعزفون

أنغاماً لم يسمعها من قبل ولا يعرفها .. منتظمة ، رتيبة ، اشار اليهم أن يزيدوا .. ففعلوا !

آخر الدراويش حاول أن يسحبه من موقعه .. فشل ، وقف قباله ، بدأ يفعل بمثل ما يفعل قائلا :

« لنفعل مثلما كان يفعل الأولون .. الله ، الله ، الله ، الله ».

ظل يوسف هكذا حتى سقط على الأرض . بلا حركة ولا نفس . فشل الدرويش أن يجعله يفيق ليتابعها ثانية . مر بيده على صدره ثم الى فتحتى أنفه ، لا نبض ولا نفس فلوى شفتيه .

الرجل عبث فى سترة الغريب ، سحب بطاقته الشخصية ، قرأ عنوان المسكن « بلوك ٥ مساكن ايواء قلعة الكبش » ..

عـزيزى القـارىء .. هـاتان القـراءتان ليسـتا مصادرة على حقـك فى ان يكـون لك قـراءتك الخاصـة بك ، ولكنهمـا تحـاولان اقـامة نـدوة معـك ، جمهورها انت ، ونصها بين يديك ، والقـراءتان النقديتان تثـيران لك القضـايا ، ولك أن توافقهما ، ولك ان تخالفهمـا ، وربمـا تكـون المخالفة فى بعض الأحيـان احـب الينـا من كثـير من الموافقـة .. لأن كل قـراءة هى اعـادة بنـاء وتركيب للنص ..

إضـفاء الطـابع المقـدس على الشخص والمـكان

تثـير هـذه الرواية اشكاليات عـديدة ، فهى تحـاول ان تقدم سـيرة لشخصية « عـادية » وهامشية من أفـراد المجتمع ، ويقـدمه الكاتب بوصفه بطـلا لعالمنـا المعـاصر ، هذا البطـل هـو « يوسف المنسى » الذى يتخـذ صورة مختلفة عن البطـل التقليدى فى الروايـة الكلاسيكية ، فهـو لا يقود نفسه ، وانمـا هـو مقذوف بـه الى الوجود ، وهـو رد فعـل ، وليس فاعلا ، او خالقـاً لأفعاله . والرواية تقـدم علاقة مركبة بين « يوسف » النبى ، ويوسف المعـاصر ، هـذه العلاقة التى تتضمن التماثل والتعارض فى كثـير من السمات النفسية والأحداث التى يمـر بهـا كل منهمـا ، ممـا يضفى على الرواية أهمية فى اثـارة التساؤل الميتافيزيقى عن معنى الوجود ، وهـو يطرح نفسه بالحاح مـع الهـم الاجتماعى ، فـاذا كان سيدنا يوسف ينتمى الى الصفوة ، ولـه سمات تميـزه عن غـيره من حيث النشأة والتاريخ الشخصى الذى مـر بـه ، فـان « يوسف المنسى » ينتمى الى أسرة منسية من التـاريخ ، لا تجـد ابسط حقوقها ، ولذلك فـان تاريخ يوسف المنسى ، هـو تاريـخ للكيانات الاجتماعية الهامشية فى المجتمـع المصرى التى تسكن فى الظـل ، وعلى اطـراف ذاكرة المجتمـع . ولذلك يصبح يوسف المنسى هـو ذات كليـة ، ومـرآة كبـرى تعكس هـذه الكيانات الاجتماعية فى علاقاتها الحياتية ، وهمومها اليومية ، والوانهـا المختلطة التى تعكس رؤية للحيـاة تختلف عن رؤيـة الكيانات الاجتماعية التى اصبحت تحتـل صدارة البيـوت والشوارع والسلطات فى المجتمع ، ونلتقى فى الرواية بعالم المخازن ومساكن الايـواء وصـور للعوالم الخلفية للمجتمع الذى نعيش

فيــه . ويجتهد الكاتب فى تصوير شخصية يوسف المنسى بوصفه نموذجـاً ـ بالمعنى الجمالى والنقـدى ـ للانسان المصرى ، الذى يبحث عن تحققــه الواعى ، فى رحـلة الرواية ، التى تمتد عبـر اربــع حركات ، هى فصول العـــام « الخريف الحزين ، اطــول أيام الخــريف ، الشتاء والربيع قــد يأتيــان معــاً ، والصـــيف الســاخن » ، ونلاحظ أن العناوين لا تفضى الى ترتيب منطقى للفصول ، ولكن الخريف والشتاء يحتلان مساحة أوسع فى حيــاة يوسف المنسى ، وهــذا يعطى دلالة ، على أن حياته مجهضــة ولا تســير ســيراً طبيعياً يتسق مع نهــج الفصول ، وانمــا هى حيــاه مشوهة ، والرواية بهـذا تقـدم « استطيقا القبــح » بوصفه علامة لواقع ينتــج نفساً بهذا الشكل ، وهــذه النفس تشارك بدورها فى هــذا ، بالصمت وقــراءة الواقع من خــلال الحواس ، دون ان تمــلك اى بادرة للقيــام بأى دور فى صياغة عالمهــا ، فيوسف المنسى لم يكتسب الانفصال التــام عن الواقع ، وانمــا هو فى حــالة تواصل حميم معـه ، وعلاقة مشتبكة معقدة ، تبين الانفصال والاتصال معــاً ، فالكل يشارك يوسف فى انه لا يملك قــدره ، أو يملك حياته أو واقعــه ، وهذه ســمة لا تجسد هذه الرواية فحسب ، وانمــا هى سمة عــامة لمعظــم الانتاج الروائى فى السنوات العشر الأخــيرة ، نجدها فى عمــل محمد مستجاب : نعمان عبد الحافظ وتاريخه السرى ، « لاحظ الحرص على تسجيل التاريخ الشخصى عند مستجاب » والفرق بين هذه الرواية ورواية مستجاب ، أن نعمــان عبد الحافظ شخصية تفتقــد الى الادراك الكــامل ، وهى بــين العتــه والوعى ، وهى تســجيل ملحمى وانثرويولوجى للشخص المهمل فى القرية ، ســواء لأسباب بدنية ، أو عقلية أو اجتماعية ، أما يوسف المنسى فهى ليست تاريخــاً ماديــاً وانما تاريخاً انثروبولوجياً للكيانات الكلية فى مجتمع المدينة ، التاريخ فى يوسف المنسى بالمعنى العــام للشخص والكل الاجتماعى

المغيب فى الظل الذى ينتمى اليه ، اما التاريخ فى نعمان عبد الحافظ فهو بالمعنى السياسى الخاص . والرواية تركز على سمة أساسية هى انه من لا يملك أى صورة من صور السلطة فى المجتمع ، لا يملك القدرة على الفعل ، وهو بهذا يشترك مع يوسف أبو رية فى روايته « عطش الصبار » فى التاكيد على أن هناك كيانات اجتماعية أنتجتها التطورات الاجتماعية والاقتصادية فى بلادنا فى العشرين سنة الأخيرة ، لها مساحة كبيرة من حيث الكم ، لكن ليس لها تمثيل كيفى فى السلطة ، والسلطة هنا استخدمها بالمعنى الاقتصادى وليس بالمعنى السياسى، فهذه الكيانات اكتسبت هامشيتها فى الفعل ، من هامشيتها من الملكية ، فاتخذ الانتماء لديها صورة خاصة هى الانتماء للذات بالمفهوم الضيق ، وهى تبحث عن انتماء كونى أوسع ، فهى فى صراع بين الانتماء الذاتى والانتماء الكونى ، اما الانتماء بالمفهوم الاجتماعى فهى لا تعرفه ، لأن حياتها لا تنتج هذا النوع من الانتماء. ولهذا فان « يوسف المنسى » ينتقل بين عوالم لا تربطها رابط . سوى الجسم والحواس التى تنتقل بينها . ولهذا فان حياته لا تعرف الفصول بتسلسلها الطبيعى ، وانما وفق تسلسل غير منطقى وغير مترابط ، وهو تسلسل خاص لا نجده فى الطبيعة ، لكن تنتجه حياة يوسف المنسى . ان الرواية تبين أن من « يملك » عاجز عن الفعل ، ومن يملك القدرة على الفعل لا يملك ، وبالتالى يفتقد الى ابسط شروط الفعل . ولذلك فان تطور يوسف المنسى من النقاء الى التلوث ، هو محاولة منه لاكتساب شروط الفعل الانسانى ، وحينما يتلون ، يضيع منه الحب ، ويضيع منه المعنى ، فيرتمى فى أحضان الدراويش بين الموت والاغماءة .
والرواية تتجاوز تحليل الصورة القصدية للانسان التى يعيش هذا الجحيم ، الى نقدها ، ان اللجوء الى الدراويش فى النهاية ، لم يعن بداية الفعل الخلاق ، ولكن بداية الموت ، وغياب الحضور

الفردى . إنــه مأزق تاريخى واجتماعى ، أصبح كل فــرد هو رهين محبسه الخـاص ، وسجنه الذاتى ، ولعل هذا هو الملمـح المتماس بين يوسف النبى ويوسف المنسى فى الرواية ، هل يريـد الكاتب أن يقول لنـا عبر الرواية ، أن التحرر من المحبس الذاتى ، والمعنوى هــو بداية لابد منهـا للخروج الى الفعل ، ولكن الفــرد لم يضع نفسه فى هـذا المحبس الاجتماعى والسجن الذى اتخـذ صورة البيت المنهار والحجرة الخشبية فى مساكن الايواء ، والرواية تؤكد على هــذا البعـد الاجتماعى ، مادام الشخص ملقى بـه فى خضـم قضايا لم يثرها ، وهموم لم يفجرها ، وهى البحث عن مأوى ، ولقمة عيش فى مجتمع الأضواء والاعلانات وآلات التصوير، ان الروايـة بتركيبتها البنائية ، تبين أن الوعى مستلب ، فليس هناك أفق آخـر ، وليس هناك أى تصور للانفلات من هذا العالم . فالسجن الذى أوقعنا المجتمع فيـه بشباكه الاجتماعية ، قد شاركت الشخصية فى صنعه ، نتيجة لاستلابها وتشيؤها ، حين تحـول « يوسف المنسى » الى شىء من الأشياء ، ينقل من مكان ، ليحـط فى آخـر ، دون أدنى فاعلية ، وعبر رحلته الأليمة التى قد تستغرق عمـره بأكمله ، يكتشف فى النهاية ، أنـه قد ساهم فى صنع سجنه الخـاص ، حين لم يسع الى أيـة صورة جديدة للحيـاة خـارج الصـور التى تحطمت فى شوارع المجتمع الخلفية ، فيوسف المنسى تـاه فى تفاصيل الحياة الشاحبة وأضفى عليها بعدا مقدساً ، فلم يجـرؤ على رفضها ، أو رفض صورة حياته .. هـل محكوم على الانسان المصرى ، ألا يكتشف حقيقة مأزقـه الشخصى والاجتماعى والسياسى الا حين يكون قـاب قوس أو قوسين من نهاية جسده الذى أنهكه التجوال ومساكن الايواء والمخدرات وحياة الظـل ؟ ، أم هــو قـدر اغريقى مأساوى يلف الانسان ، لا يدر منـه فكاكاً ، ان الرواية تناقش كل هـذا ، عبر لغـة فنية وجمالية ذات مسـتو رفيع ، فالبناء الروائى محـكم بعمود فقرى هـو يوسف المنسى ـ

الذي وجد نفسه وحيدا ـ بعد ان انهيار منزله ، وقتل كل اخواته وابويه تحت الأنقاض ، واصبح هو اسطورة ، لأنه ظل تحت الاقاض ، عدة ليال ، حتى استخرجوه من تحت الأنقاض ، بلا بطاقة شخصية ، وبلا أشياءه الخاصة ، وبلا هوية ، تطغى على بصره ، اضواء آلات التصوير التى تجد فيه فرصة لتسلية قارىء الصحف واجهزة التليفزيون والاعلام . ليبدأ حياته فى طريق آخر ، البيت هنا هو البناء الاجتماعى لهوية الشخصية وتحديد معالم انتمائه وحين انهار ، انهار معه كل تاريخه السابق ، الذى لم يعد له حضور سوى فى الذاكرة . الذاكرة التى يستعيض بها الكاتب عن الفعل ، ليقلب يوسف المنسى فى الجزء الأول من الرواية بصره وتفكيره الى الوراء ، ليبحث عن ملامحه فى الذاكرة ، ويبحث عن ذاته فى تاريخ الوعى ، ولا ترى العين ماهو ملقى امامها فى الواقع من مصير أسود ، وتبدو شخصية يوسف المنسى فى هذا الجزء وكأنها معتوهة ، او بلهاء ، تتلق حواسه صور الخارج ، دون ان تعيد ذاته تركيبها ، لكى تفيد دلالة بالنسبة له ، حتى حاسة الشم ، تقوم بعملها ، لكن الوعى ، ووحدة الذات العميقة لا تقوم بأى دور فى فهم ما يحدث ، وقد نجح الكاتب فى تقديم صورة لشخصية يوسف المنسى المستلبة ، التى لا تملك اى قدرة على الفعل ـ ازاء الصدمة ـ حتى لو كان فعلا على المستوى الذهنى ، فالحادث ، قد سلب الشخصية القدرة على البناء والتركيب والفهم ، ولم يعد سوى الرجوع الى الذاكرة البصرية والسمعية ، لتعويض الشخص عما يراه ولا يفهمه . والبنية التى تقوم عليها الرواية هى بنية مكانية ، بحيث يمكن ان نطلق عليها رواية من روايات المكان ، فالفصول الأربعة فى الرواية ، هى تحليل للتفكير البصرى فى المكان الذى تقطن فيه ، وتحولات يوسف المنسى فى المكان ، هى بؤرة وعيه ، وهى تكشف عن معطيات هذا الوعى الذى تخلق بعد

حادثة انهيار البيت ، الذى يبدو وكأنه انهيار للوطن والشخصية ، فالعوالم المكانية التى عايشها يوسف المنسى فى مساكن الايواء وعالم المخبز وبيت الراقصة وحلقة الذكر هى مجمل خبرته الحقيقية التى يستمد منها معيار القيمة ، وعمله مساعدا للنجار الذى يصنع الأرابيسك ، هى تأكيد من الكاتب على ان يوسف المنسى يغرق فى تفاصيل المكان ، دون ان يكتشف الوحدة فى التعدد الذى اكتسبته من تحولاته وتنقلاته عبر الأماكن الاربعة ، ويوسف المنسى حين يرفض غواية زوجة النجار ، هى نقطة تماس اخرى بين يوسف النبى ويوسف المنسى ، ولكن دلالة كل حدث مختلف عن الأخرى ، لأن معنى القيمة مختلف بين الحادثتين ، فرفض يوسف المنسى لغواية زوجة النجار ، لا يعن انه يدافع عن القيمة الأخلاقية المطلقة ، وانما يعنى انه رغم تجواله فى هذه العوالم المختلفة ، الا انه لا يزال منفصلا عن هذه العوالم ، ولم يعد جزءا من الجسد العام لهذه العوالم المكانية التى يتجول فيها ، وهذا واضح فى الفصول الاربعة فى الرواية ، ففى كل قسم لا يذوب يوسف المنسى ذوبانا كاملا فى هذه العوالم ، وانما تبقى منطقة متوترة ، تجعله لا يشاركهم حضورهم الحياتى ، وانما منصرفاً عنهم الى عالم آخر لعله يجد فيه تحققه الشخصى والوجودى ، ولعل هذا ما يجعل من يوسف المنسى بطلا معضلا ، تعمل حواسه جيدا فى التلق ولكنها لا تشارك ، يشاهد ، ولا يمارس فعل التأمل فيما يشاهده . ولعل عمله مع النجار ، يكشف عن بعض الانتماء الطبقى ليوسف المنسى ، حيث ينتمى للطبقة المتوسطة ، لأن النجار يتحدث عن الذوق ، لدى فئات المجتمع ، بينما فى العوالم الأخرى لم يمارس يوسف المنسى هذا الترف الفكرى ، ففى هذه العوالم يبحثون عن شروط الحياة ، من بيت وعمل ، وهو حين انهار البيت انضم اليهم ، لانه صار مثلهم بلا بيت او عمل ، بينما عند النجار ، يتحدث عن فساد الذوق ،

هــل يتحدث هنــا عن فساد ذوق الطبقات التى لا تملك المأوى والعمل ؟ ، م يتحدث عن فساد ذوق الكيانات الاجتماعية التى تملك سلطة المــال ؟ والرواية ـ فى هذا الملمــح ـ تشترك مع مجموعته السابقة « السـفر » التى سبق أن أصدرها الكاتب ، وهى بحث عن معنى القيمة Value فى حياتنا ، القيمة بالمفهوم الجمالى بالمعنى العــام والخاص ، وفساد الذوق الذى يتحدث عن النجار هــو حكم فى القيمة ، ويبدو أنهــا هــم متأصل فى تجربة الكاتب الجمالية والفنيــة ، ويحرص على ابرازها فى أعماله القصصية والروائية .

ولعــل هذا الجــزء من الرواية ـ عمــل يوسف مساعدا للنجار ـ يضيف الى ابعاد الصراع بعدا آخــر ، هو أن صراع يوسف المنسى هــو صراع قيمى ، أو هــو بحث عن القيمة ، ولذلك فان الكاتب كان يصــور بعض الأماكن والعلاقات التى تدور فيهــا ، وتفرضها طبيعة المكان ، من منظور قيمى ، وليس تقديم هــذه العلاقات كمــا هى ، وانمــا بحكم يتضمن معنى الاستهجان أو الاستحسان . وهذا يفسر بدوره السبب فى عــدم ذوبان يوسف المنسى فى هذه العوالم المكانية ، وانتهاء توتره العميق ، وهــو أن يوسف المنسى ، سجين بنــاء قيمى ورثه من الذاكرة ، يعوقه عن اكتشاف المكان ، فهــو يرى من خــلال ذاكرته التى تسيطر عليها امــه وابوه وأخواته ، وهــو لم يتحرر منهــم . فيوسف المنسى رغــم أنه يشاهد ويرى ما حوله ، وحواسه ـ من الناحية البيولوجية ـ سليمة فى قدرتهــا على الادراك ، الا أن هــذه الحواس ـ ذاتهــا ـ مسجونة وأسيرة الذاكرة القديمة ، ولعــل رجوعه الى حلقة الذكر ، هو الاستجابة لصوت داخلى حميم فى عمق ذاكرته ، يهرب بــه من تجولاته فى المكان ، ويحتمى بــه من تحولات الوعى التى تدفعه لكى يصــنع حياته . ويوسف المنسى يــرى ولا يكتشف ولا يغوص فى المكان ، وانمــا تبقى بينــه وبين المكان هــذه المسافة النفسية ـ التى صنعتها الذاكرة ـ التى تبقيــه منفصلا ومعذباً وقلقــاً لمــا يدور

حوله . وهو بهـذا يجسد الاغتراب الذاتى الذى تعانيه الشخصية المصرية فى تاريخنا المعـاصر ، ويقدم لنـا شروطه الاجتماعية ، وأسبابه التاريخية ، وهـو اغتراب ، تجـد الشخصية نفسها فيـه ، نتيجة لاغترابها عن الواقـع المكانى الذى يحيط بهـا ، هـو نتيجة وسبب فى الوقت نفسـه . فاغتراب الشخصية عن نفسها هـو نتيجة لاغترابها عن المكان الاجتماعى ، وهو سبب ، لأن الشخصية لا تعيش واقعها وانمـا تهرب الى الذاكرة التى تحيط بأحداثهـا التاريخية .

ان التماس والتقابل الذى استخدمه الكاتب بين يوسف النبى ويوسف المنسى قـد ساعده فى خلق اهـم سمة فى الرواية وهى اضفاء صـفة الطابع المقدس على سيرة هـذا الشخص العادى ، ويجعله يتماثل مع يوسف النبى فى كثير من المواقع ، فـاذا كان يوسف النبى قـد أوقعته المكيدة فى الجب ، فان يوسف المنسى قـد أوقعه الانهيار الاجتماعى فى جب الأنقاض للبيت المنهار ، وكلاهما بـدأ من هذا الحادث حيـاة جديدة فى مجتمع جديد ، فيوسف النبى يؤخذ الى مصـر ، ويوسف المنسى الى مساكن الايـواء ، ليبدأ رحلة جـديدة من التحولات المكانية ، والبناء فى قصـة سيدنا يوسف هـو بناء تراكمى ، يعطى معنى وقيمـة ، بينما بنـاء حياة يوسف المنسى هـو بنـاء مفتت لا يفضى الى بعضه ويخـلو من المعنى والقيمة . واضفاء البعـد المقدس على حياة شخص عادى ، وتحويله الى اسطورة يلفها الغموض ، هو انجاز يحسب للكاتب ، قـد سبقه اليه جمال الغيطانى فى روايته التجليات ، ورسـالة فى الصبابة والوجـد ، والفرق بينهما ، أن جمـال الغيطانى يستخدم اللغـة فى اضفاء الطابع المقدس على الانسان المعـاصر ، بينمـا يستخدم السيد نجـم التماس بين يوسف النبى ويوسف المنسى فى اضـفاء الطابع المقدس على حيـاة يوسف المنسى ، وهو مثـل

اى انسان عـادى توقعه ظروفه فى فقدان المـأوى والعمـل .
وما يميز هـذه الرواية ايضـا هـو اضفاء الطابع المقدس على المكان وهـو البنية الأساسية التى تقوم عليهـا الرواية ، وهـو يشترك فى هـذا مع ابراهيم اصلان فى روايته (مالك الحزين) ، حيث يضفى القداسة على المكان ، وفى رواية ايـام يوسف المنسى ، لا يمكن تصـور المكان بدون العلاقات الحياتية التى تنشأ فيـه ، وهـذا ما نجـده فى عـالم مساكن الايواء وعـالم المخبز وحلقات الذكـر . وهـذا التوحيد بين البشر والمكان هـو الذى جعـل الكاتب يقدم لنـا انجـازه الثانى فى هذه الرواية وهـو تقديم عالم الكيانات الاجتماعية المهمشـة ، الذين يسكنون على أطراف المجتمع ، وهـم لذلك من الناحية الاجتماعية والسياسية ، فيقدم لنا البشر بوصفهم تاريخـاً وعلاقات فى المكان ، ولكنهم يظلون خارج الذات ، وهى ذات يوسف المنسى ، فالأشخاص ليسـوا فى علاقة مـع يوسف المنسى ، رغـم انهم يستظلون مكاناً واحدا ، ويرجع هـذا الى السجن المعنوى الذى يحـرص الكاتب على تقديمه ، والذى يعيش فيـه يوسف المنسى .

ويمكنى أن نميز داخـل الرواية بين خطاب البطل ، وخطاب الكاتب / الراوى ، فى تـواز متماثل طـوال الرواية . فخطاب يوسف المنسى يتضح فى الحوار الذاتى ، والحوار مع الآخـر ، وخطاب الكاتب / الراوى يتضح فى وصف المكان ، ووصف حركة الفعل داخـل المكان ، والتماثل بين الخطابين يوحى بالتوحد بينهما ، فرغـم استخدام الكاتب لضمير الغائب طوال الرواية ، الا أن البنيـة السردية يهيمن عليها بنـاء ضمير المتكلم فى المعنى . لأن الرواية تعتمـد على التعارض الجوهرى بين الذات والعـالم ، وهناك تداخل عميق مقصود لدى الكاتب بين رؤيـة يوسف المنسى ورؤية الراوى طـوال مراحـل الرواية الأربعة ، ويؤكد هـذا أن

الكاتب يعتمد فى بنــاء الرواية على الزمن بالمفهوم الذاتى ، ولم يجنــح الى استخدام الزمن بالمفهوم الموضوعى طوال الرواية ؛ ولذلك فــان تاريخ يوسف المنسى يــؤرخ لــه بالاحداث التى تحدث لذاتــه ، بينمــا فى رواية محمــد مستجاب التاريخ السرى لنعمان عبد الحافظ ، نجــد التاريخ الموضوعى يلقى بظلاله فى الهوامش والأحداث التاريخية التى تمر بالوطن ، وفى رواية ايام يوسف المنسى، نجــد التاريخ بالمفهوم الذاتى ، الذى يجعــل كل ذات منــا تحمل تاريخها الخــاص ، وهــذا يتسق مع ما تريد الرواية أن تقــدمه من رؤية مفادها ، أن الانهيار الاجتماعى حــول كل منــا الى جــزر وسجون منعزلة ، فى مساكن الايواء ، أو حتى حين نرقد على أجولة الدقيق فى المخبــز .

والرواية بهــذا الزمن الذاتى ، الذى يعبــر عن نفســه فى انعلاقة بين زمن الراوى ، وزمن يوسف المنسى هى دراسة للذات المصرية فى تحولاتها الأخــيرة ، حيث تفتقد الى الحــرية ، التى تفتقــد الى أبسط صورها ، فضمير المتكلم الذى يستخدمه الكاتب فى تباين مع ضمير الغــائب ، هــو استخدام جيــد لتفريغ حيــاة يوسف المنسى من اى معنى أو دلالــة ، وبنــاء الجملة القلق الذى يعتمــد على اداة النفى والاستدراك ينقــل للقارىء هــذا الشعور بالقلق والضــجر والقهــر وعــدم الحــرية ..

والكاتب فى القسم الأول من الرواية يقيــم تزاوجاً بين ضمير المتكلم وضمير الغــائب ، ولكن حضور ضمير المتكلم كان اشــد كثــافة فى الفصلين الأول والثانى ، ويقــل حضوره فى الفصــل الثالث والرابع ، ولا ندرى لمــاذا يفســح الكاتب المجــال للراوى فى الفصلين الأخيرين فى الرواية ، ويقلل من حضور المتكلم الذى ســاد فى الفصلين الأولين ، فهــل هــذا يرجع لنتيجة التوحيــد بينهمــــا ؟

تبين هـذه الرواية ، أن الكاتب يعى تطـور الرواية العربية في تاريخها فى التعبير عن اشكاليات الواقع ، وتمثل هذه الاشكاليات من خـلال صياغات جمالية تجسـد الهـم الفنى لدى الكاتب . فالرواية ، تتعدد ضمائرها لتقدم الطابع الكرنفالى للعالم الاجتماعى الذى يطـرحه من كيانات اجتماعية عـديدة ، وتتعدد مستوياتها الأسطورية واللغوية والمكانية لتقدم أزمة طبقة فى منعطف اجتماعى؛ وهى بهـذا تنضم الى الكتابات الحداثية ، التى تحاول أن تتخلص من هيمنـة وسيادة مفهوم واحـد للحياة ، صحيح أن الرواية . لم تقـدم أفقـاً للخلاص من المـأزق السياسى ، لكن من يطـالب الفن بهـذا ! انـه يكشف ويحلل ويوصف ، وهـذا كشف جديد ، يمكن أن يضـاف كوثيقة أدبية لتحليل الوعى المصرى والعربى فى مرحـلة هامـة من مراحـل ادراكه لذاته .. والكاتب بذلك يمتلك ويعيش مشاركا فى السـاحة الثقافية بأدواته وصياغته وقدراته الجماليـة .

د. رمضان بسطاويسى محمد

الوظائف الأسلوبية فى « أيام يوسف المنسى »

١ ــ لا يتيــح لى منهــج التحليل الأسلوبى الذى اصطنعه فى هــذا المقــال ان اعالج ما يسمى عــادة سلبيات العمل الأدبى ، لأنه منهج يعنى بالوصف اكثــر من عنايته باتخاذ سمت الخبــير المثمن . لا يرضى هــذا التوجه ــ بلا شك ــ القــارىء الذى يفهم النقد كمــا كان يفهمه ناقــد « عظيم » قديم مثل قدامة بن جعفر ، كان يــرى النقد ضرباً من التأليف ينسب الى عــلم جيد الشــعر من رديئــه(١) . يكفى ان يقــال الآن ان كثيرا من السلبيات يمكن أن يــرى فيها قــارىء « مدرب » على انتــاج الدلالة الأدبيــة دوالا على معــانى بعيدة . وربمــا نلمس فى بعض المواضع القادمة شــيئاً من هــذا .

ويعتمد منهــج المقال على مقدمتين : تسلم اولاهما بأن الأبنية النحوية تتضافر لتصنع مستوى من مستويات بنية النص تقــوم عليه الدلالة ، ويمارس كثيرا من الفعالية . هــذه المسلمة شبيهة بفــكرة عبد القاهــر الجرجانى عن « النظــم » الذى هــو ليس « الا ان تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحــو »(٢) . لكنهــا فى نفس الوقت تتجاوز عبد القاهــر . ولا يسمح الموقف باستعراض مواطن الخلاف . يكفى أن نشــير الى أن ما تأسس لتأمل جماليات البيت الشعرى لا يصلح لأبنية أكثر تعقيدا كالقصيدة او الرواية . ولنشر كذلك الى ان النص مع أنــه فى بنــاء اسلوبه يدور فى مدار النحــو وهو يختار ابنيته اللغوية من هيكل اللغــة ومن ذاكرتها ، الا انــه يمارس قــدرا من المخالفة تسمى بالانحراف

الأسلوبى . هذا الانحراف ليس خروجاً تاماً عن القواعد النحوية ، ولكنه عدول عن الأصل الى الفرع ، والحاح - احياناً - على اختيارات معينة لا تداب عليها اللغة ، واضعاف لنسبة توقع القارىء للنمط اللغوى ، مما يولد لدى القارىء شعورا بالمفاجأة(٣) .

وتسلم المقدمة الثانية بأن علم النحو يحاول أن يستنبط من اللغة بناء من الميتافيزيقا والمنطق ، حتى اننا نستطيع أن نستخرج المقولات العشر المتداولة فى المنطق الصورى من مقولات علم النحو العربى(٤) . ههنا السر الذى يستخرج به المبدع من الهيكل النحوى للغة ابنية جمالية شامخة . ومن الأمثلة المعروفة على هذه النقلة للمفهوم النحوى من مكانه فى عم النحو الى تمته فى علم الجمال نقلة مفهوم « الفاعل » من النحو الى النقد الأدبى على أيدى البنائيين(٥) ، خاصة من يعاملون النص بوصفه جملة واحدة شديدة التعقيد . وما يحاوله النقد الأدبى حينئذ هو أن يكشف عن نجاح المبدع فى تحويل النمط اللغوى الى بنية فنية شديدة التعقيد والاختلاف . وربما كان الاختلاف الذى يوصف احياناً بالانحراف هو ما يدعو الى القول اننا بحاجة امام كل نص الى تأسيس علم للنحو خاص بهذا النص وحده .

من ههنا نستطيع أن نقرأ « ايام يوسف المنسى » ونبحث فى انجازها النحوى ، ونحصر ابنيتها الأسلوبية الفاعلة ، ونرى اساليب الاضافة ، والنعت ، والتعريف ، والضمائر ، والزمن النحوى ، والزمن المعجمى . وذلك مادام الأسلوب « محصلة مجموعة من الاختيارات المقصودة بين عناصر اللغة القابلة للتبادل »(٦) . واظن أننا لسنا بحاجة الى التذكير الملح بأن تحليل الأسلوب Stylistics يقع فى منطقة وسطى بين علم اللغة Linguistics والنقد الأدبى(٧) . وانما يجب الالحاح على أننا لا نصنع صنيع ليش Leech الذى وضع

تحليلا لبنيــة المقاطع فى الانجليزية ليصف على نحــو شامل بنيــة الأنمــاط الشكلية المحتملة فى الشــعر(٨) ، لكننــا نتذوق نصــاً فى جمالياته الأسلوبية وانجــازه النحوى فحســب .

٢ ــ لأسلوب « الاضافة » فعالية كبــيرة فى النص . ذلك اننــا من بعض الوجــوه أمــام رواية من روايات الانتماء . لقــد انهــار بيت يوســف(٩) فنفقد فى الانهيــار البيت وفقد الأهــل ، واصبح فى حاجــة الى أن يكتشف عالمــاً من العلاقات يندرج فيها . والالحــاح على أسلوب الاضافة يجســد هــذا الشعور ، كــأن الأشياء تحاول أن تتماسك .

والاضافة نحوياً نوعان : اضافة غــير محضة ، وهى اضافة الاسم الذى يعمــل عمــل الفعل لمعموله ، كقولهم مررت بضــارب زيــد ، فضارب هنــا تعمل عمــل يضرب ، والمضاف اليــه زيــد هــو المضروب . مثــل هــذه الاضافة امكانية غــير مستعملة فى الروايــة لأنهــا تحتاج الى فاعلية يفتقدها يوسف فى ظروفــه .

والنوع الثــانى الاضافة المحضة ، وهى الشائعة ، وتفيــد عند النحــاة التخصيص مثــل رسالة شوق ، أو التعريف مثــل رســالة زيــد(١٠) .

ونستطيع ان نجــد هــذه الاضافة فى عنوان الرواية « أيام يوسف المنسى » . اضافة الأيام الى العــلم يوسف ، واضافته الى العــلم المنسى (هنــاك احتمال آخــر لــه موضع قــادم) يؤســسان شعورا مبــكرا بالحاجة الى الترابط . ومع أن الاضافة الى علمين الا ان يوسف يتســاءل : « هــل أنــا نكــرة ؟! » ، بــل أن اسمه عنده « بلا معنى البتــة » (نفسه) . اننــا أمــام اضافة مفرغة من دلالتى التعريف والتخصيص . والأيام هنــا

ليست عظيمة كأيام العرب . انها فى هذا النسق شىء يوحى بالتعاقب البارد الخالى من الفعالية . ويقول يوسف عن المعلم محرز : « يعشق لعبة الانساب وتأصيل الاسماء ومعرفة كل صغيرة وكبيرة داخل بيوت الحارة » (نفسه) . وتأتى بنية العبارة على النحو التالى :

يعشق لعبة الأنساب ..
= فعل بفاعل (غائب) + مفعول به + مضاف اليه .

وتأصيل الأسماء ..
= فعل بفاعل (غائب) + معطوف عليه + مضاف اليه .

ومعرفة كل صغيرة ..
= فعل بفاعل (غائب)+معطوف عليه+مضاف اليه+مضاف اليه .

وكبيرة ..
= فعل بفاعل (غائب) + معطوف عليه المضاف اليه السابق .

داخل بيوت الحارة ..
= فعل بفاعل (غائب) + ظرف + مضاف اليه + مضاف اليه .

فالاضافة ذات الحضور القوى تتسق مع لعبة الأنساب ، وتأصيل الأسماء ، والبحث عن الانتماء .

٣ ــ وأسلوب « النعت » له فعاليته الكبيرة . وهو متصل بطبيعة الرواية . انها رواية من روايات التعرف . لا التعرف الأرسطى الذى « موضوعه الاشخاص »(١١) ، وانما التعرف على العالم والبيئة ونسق العلاقات الاجتماعية . ويشترك هذا التعرف الذى يعيد تنظيم الوعى مع التعرف الأرسطى على الأشخاص فى ان كليهما « انتقال من الجهل الى المعرفة يؤدى الى الانتقال : اما من الكراهية الى المحبة ، أو من المحبة الى الكراهية عند الأشخاص المقدر لهم السعادة

أو الشـــقاوة »(١٢) . لكن الانتقـــال فى الرواية أكثـــر تعقيدا من ثنائيات وتبادليات الكراهية والمحبة ، والسعادة والشقاوة . انـــه أكثـــر اتصالا بوجـــود الانسان فى العـــالم وبالقـــوى المتحكمة فى هـــذا الوجـــود .

ونستطيع أن نستبدل بمصطلح رواية التعرف مصطلح رواية التعـــلم الشائع فى النقـــد الأدبى والذى ظهـــر مفهومه عند هيجل فى حديثه عن الرواية(١٣) . لكن البطـــل فى الرواية خلافـــاً لرواية التعـــلم لا يمارس تمـــردا واضحاً على المجتمع قبـــل ن تدفعـــه التجـــارب الى التعقل واخضوع . انه يبـــدو فى الرواية ، خاصـــة فى قسميها الأولين ، ينظـــر الى العـــالم من قمقـــم الذات ، نظرة أقـــرب الى التعـــرف من التمـــرد .

وفى مثـــل هذا الموقف تصبح نعـــوت الأشياء نوعاً من تحقيق المعـــرفة بهـــا .

وربمـــا يصـــح أن نـــرى النعت نحـــوياً فى عنوان الرواية ؛ ذلك أن دلالـــة النسيان فى كلمـــة « المنسى » جـــزء من شفرة تحكم أسماء الأشخاص فى الرواية ، وتقـــوم بتنميطهم . وكلمة « المنسى » بدلالتها النعتيـــة تجعل يوسف نموذجـــاً للقوى المهمشة فى الواقع . يعـــين على هـــذه النمذجة اســـم الأب « عبد الواحـــد » المشتق من الواحدية فى الأسماء الحسنى ، والمشتق من الوحدة والانفـــراد فى الدلالة المعجمية . ويعين عليهـــا كذلك التناص الواضح بين يوسف فى الرواية الذى يـــرى نفسه ملقى فى جـــب ، ويوسف النبى الذى طرحـــه اخوته فى البئـــر . وهاهـــو يتعرض لصنوف من الاغـــراء ، منهـــا الاغـــراء الجنسى مع زوجة النجـــار ، وينتهى الى العمـــل فى نشاطات اقتصادية ملوثة ، ممـــا يجعل اليوسفين يتناقضان قـــدر ما يتماسان .

والدلالة النعتية للأعلام تظهر على نحـــو خاص فى الأشخاص

الكثيرين الذين يظهرون في مساكن الايـواء . شمروخ مثلا « مجهول المولد والأهـل » (تذكـر الاضافة والنسب) ، وهـو يرى كـل شيء وينقـل الأخبار في المساكن ، فكأن كلمـة شمروخ ، وهي تعنى العصـا الكبـيرة ، تجعـله يـرى الأشياء واضـحة من أعـلى ولنسمع حـيرم العضـل يصف نفسـه : « المهـم ، أنا حـيرم العضـل ملك السلخانة . هباش عنبـر ٣ ، أكبـر العنابر ، عنبر الأكابر وملوك السوق ـ عنبـر الحكومة » (نفسه) . انهـا طائفة من النعـوت المسوقة مسـاق الأخبار ترسـخ مفهوم القـوة ، وتستمد من شفرة المذبح ، فـلم يطلق عليـه حـيرم الحديد مثلا ، لأن العضـل انسب . وكلمة « حـيرم » قليلة الشيوع مما يساعد على الايحـاء بالنمطية . ومثـل هـذا في أسماء أخـرى كثيرة . ولنقـرأ تعرفة على أم وردة :

> « تعرف على صوت أم وردة من بين الأصوات المقذوفة الى اذنيـه ، نهض مسرعاً يلقى نظـرة عليها ، وجدها منتصبة وسط حلقـة من رجـال المساكن ، في العقـد الرابـع من العمـر ، عيناها الحـور احاطتها بكحل اسـود فازدادتا جمـالا ، شعرها الطويل مصـبوغ بالحنـة الحمـراء وقـد تركتـه على كتفيها ناعمـاً مستقرا ، اكسبها ثقـة مع صوتها العـالى الواضح القـوى الواثق ايضـاً ، بدت خفيفـة الحركة باليـد والحـاجب ، سريعـة التفكـير ... » .

موقف التعـرف واضح في الكلمة الأولى . والاسـم المشهور بـه « أم وردة » اسـم اضافى ، فهى ذات حضـور داخـل بيئة تنتسب اليهـا وتمارس فيهـا فعاليتها ، ولا تبحث عن هـوية ووجود مثـل يوسف . والأوصاف في الفقـرة كثـيرة بعضها يعرب نعتـاً ، وبعضها لـه اعـراب آخـر مع تشبعه بالدلالة النعتية .

الموقف سرديا هنا موقف نعتى الى حد كبير ، وذلك فى سياق محاولة يوسف أن يتعرف على العالم .

٤ – ينبثق عن الموقف المعرفى ليوسف شيوع ظاهرة « التعريف » . ولقد اشرنا الى التعريف بالعلم وما يحكم شفرة العلم من دلالة وتنميطية . يبقى التعريف بـ « ال » . نجد هذا الضرب من التعريف فى كلمة « المنسى » . ونجده فى عناوين الاقسام الاربعة .

القسم الأول : « الخريف الحزين » ، والثانى : « اطول أيام الخريف » ، والثالث : « الشتاء والربيع قد يأتيان معاً » ، والرابع : « الصيف الساخن » . ومن الواضح ان الاسماء كلها معرفة ، لاننا فى الحقيقة أمام رحلة معرفية للذات .

٥ – الضمير له أثره فى بناء الخطاب القصصى فى الرواية . واذا كان النحاة يقولون ان « الضمير مادل على غيبة او حضور »(١٤) ، فان ضميرى الغيبة والحضور يتجاوران على نحو ملحوظ فى لغة السرد . لنقرأ هذه الفقرة من مطلع الرواية :

« شق قصير فى حائط المنزل ، تابعه يكبر طولا ، عمقاً ، وعرضاً . اخبرهم – الجيران وأباه – كان جوابهم : (ليكون آيلا للسقوط .. لن نتركه ، الى اين المسير .. ان هلك نهلك معه ، ان بقى سيبقى سترنا ؟!) وقتها لم يفهم يوسف سر رغبتهم الدفينة – الجماعية – فى الهلاك !
ماذا على أن أقول ؟

عن ميتة ابى .. احتواه الهلاك وهو فى المرحاض ... » .

كان من الممكن تعريف الحائط بأداة التعريف ، لكنه عرف

بالاضافة الى المنزل ، لأن المنزل يجسم العالم المفتقد الذى ينتسب اليه يوسف . وكان فى امكان القارىء أن يستنتج من يعود عليهم الضمير هم فى قوله « اخبرهم » لكن عناية الأسلوب بفهم العالم الانسانى جعلته يوظف البدل لغمر الضمير بمزيد من الضوء ؛ فالكتابة ههنا تحاول أن تصنع العالم المجهول المهمش فى دائرة الضوء . وفى جوابهم عليه توحيد واضح بين مصير البيت ومصير البشر يتفق مع موقف الانتساب الى عالم . وفى كلمة « سترنا » ملمح اسلوبى ، فالشائع ان يقال سيبقى سترا لنا ، لكن اضافة الستر / المنزل الى ضمير الجماعة تحرك فى جماليات الاضافة دلالة الانتماء . وتقديم ظرف الزمان « وقتها » على الفعل « لم يفهم » انحراف أسلوبى آخر يميز بين وقتين الأول خاص بلم يفهم ، والآخر خاص بالرحلة المعرفية التى تبدأها الذات بالسؤال : « ماذا على أن اقول ؟ » . ههنا تحول واضح من الاشارة الى يوسف بضمير الغائب ، الى الاشارة اليه بضمير المتكلم الذى يستحضره ويستنطقه .

ويستطيع القارىء ان يلاحظ بنفسه الحضور الخصب للمزاوجة بين ضمير الغائب وضمير المتكلم الحاضر ، وأن يلاحظ ان هذه المزاوجة تنحسر مع القسم الثالث والرابع من الرواية حيث « يعمل » يوسف ، والعمل يعنى الاندراج فى مصفوفة الواقع ، والانضمام اليه — من موقع المشاركة لا التغيير — ، وانتهاء التخبط بين دخول جب الذات (ضمير المتكلم) والخروج بالوعى الى العالم (ضمير الغائب) . لكنه لم يكن خروجاً موفقاً .

٦ — يعالج علم النحو مشكلة الزمان فى ثلاثة ابواب : الأول والثانى منها هما الظروف واسم الزمان والمكان من المشتقات ، وهما اقرب الى ما نسميه بالزمن المعجمى . أما

الثالث فهو الفعل ؛ فالأفعال فى النحو يتلبسها الزمان ويصنفها الى ماض وحال ومستقبل . ولا نستطيع أن نفصل الأفعال عن ادوات الفصل والوصل فى الأنساق الأسلوبية للرواية الحالية . ان الزمن النحوى فى اسلوب الرواية يمثل معادلة تجمع بين الزمان والفعل وبين الفصل والوصل . نقرأ هذا فى النص التالى حيث يصف يوسف لحظات انهيار البيت :

« لحظتها ماكنت اشعر انها لحظات الموت ، كنت افكر فيما يجب على ان افعله .. قررت الرقاد تحت السرير ، وجدته أفضل بالرغم من الأرض المزقة تحتى ، تكورت داخل بطانية صوفية ، شعرت بالطمانينة داخلها . قررت الا ابول ، ان أشرب دمعات عينى ان بكيت . قررت ن اصيح بأعلى صوتى على فترات منتظمة . لا احفظ كثيرا من الآيات القرآنية ، اكتفيت بالفاتحة والصمدية » .

تقديم ظرف الزمان « لحظتها » يشبه تقديم الظرف « وقتها » الذى مر بنا فى الفقرة الخامسة . انه تثبيت للحظة الصدمة التى يولد فيها الوعى . لذا انتفى الشعور : « ماكنت اشعر » ، وثبت التفكير : « كنت أفكر » . وموضوع التفكير هو الفعل المواجب لا الحر . الواقع يهاجمه وعليه ان يقوم برد الفعل ليحافظ على حياته . والفعل « قررت » يتكرر ليبرز شعور الذات بذاتها ، وبالنشاط الذى بداه الوعى . والطمانينة التى شعر بها داخل البطانية زائفة طبعا بدليل الخوف اللاحق بها من البول والدموع . هذا الزيف يمارس ما اسماه رولان بارت تفريغ العلامة ودفع موضوعها الى الوراء(١٥) . هذا يشبه ما حدث لمفهوم الأيام من قبل حتى اصبحت كلمة باردة خالية من الوعى بالعلامات

السببية . ذلك ان بنيــة النص تجميعية مكانية وليســت سببية زمانية(١٦) . ومظهر هــذا التجميع المكانى انتفاء أدوات الوصل . لنعــد كتــابة النص موصــولا :

« لحظتهــا ماكنت أشعر انهــا لحظات المــوت ، بل كنت أفــكر فيمــا يجب على أن افعله ، فقررت الرقاد تحت السرير ، الذى وجدته أفضــل بالرغم من الأرض المزقة تحتى . ثم تكــورت ... الــخ »

لاشــك انــه نص آخــر بأدوات الوصــل . اننــا أمــام وعى واضــح ينسق علاقات الأشذياء ، وهــذا يتنافى مع طبيعــة وعى يوسف ، ولــو كان لــه هــذا الوعى ما انتهى الى ما انتهى اليــه فى تكيــة المولودية .

٧ ــ يبقى لنــا ما اسميه بالزمــان المعجمى . وقــد مــر بنــا آنفــاً موضعان لتوظيف ظرف الزمــان : « وقتها » و « لحظتها » اسلوبياً . والواقع أن معجــم الزمان ينهض بعــبء كبير فى بنيــة الرواية ، وبصــفة خاصة معجــم الفصول .

القســم الأول : « الخريف الحــزين » يعالج سقوط البيت ، وانفصال يوسف عن عالمــه كانفصال الورقــة عن شجر الخريف ، لتتلقــاه أرض الواقع ، فتصدمه بمــا فى الواقــع من تشوهات أولهــا الشذوذ الجنسى بين عمــال المخبــز . يتلوها فى الفصــل الأخــير من القســم ، وفى الفصول الستة عشر فى القسم الثانى : « أطول أيام الخريف » مشاهد الحياة فى مساكن الايواء بتشوهاتها المعجبية . لهــذا الخريف بين عنوانى القسمين .

أما القســم الثالث : « الشتاء والربيع قــد يأتيان معــاً » ففيــه يكف يوسف عن مراقبة العــالم ويخرج الى العمــل ، فيعمل طبــالا وراء الراقصة ســونة ، وتقــوده الظروف لاحياء فــرح

محبوبته « امل » على شاب غيره(١٧) ، مما يدفعه الى عالم المخدرات(١٨) ، حتى يمل ويهجر المساكن ليعيش مع نجار ارابيسك يعانى من ازدراء الناس عن مهنته لفساد الأذواق(١٩) ، وبينما يعمل يوسف مساعدا للنجار تجتهد زوجة الرجل فى اغواء يوسف ، ويجتهد يوسف فى الرفض(٢٠) حتى يكتشف النجار الأمر فيرجع يوسف الى المساكن . ومن الصعب أن نميز الشتاء من الربيع فى هذا القسم ، ولعل الربيع هو « أمل » ولعل الشتاء هو صدمته فى زواجها ، وما يعقبها من تنقلات محبطة فى المجتمعات التحتية المهمشة .

اما القسم الرابع : « الصيف الساخن » ، فيعمل فيه يوسف مع أم وردة فى تهريب البضائع من بور سعيد ، ويقوم نيابة عن أم وردة وعن الشخصية الكبيرة التى تحميها بشراء الملكية التى يملكها والد امل لتحويلها الى متجر لتوزيع البضائع المهربة . ونظرا لأن أمل قد طلقت فلقد حاول معاودة علاقته بها لكنها رفضت لأن يوسف فقد نقاءه القديم الذى احبته فيه . وينتهى الأمر بيوسف فى احدى التكايا القديمة يدور كالدراويش حتى يقع على الأرض بين الاغماء والموت . ولعل الصيف هنا يشير الى حرارة الصراع حين يصل الوعى الى اساسه السياسى المتمثل فى القوى الكبيرة التى تحمى الفساد .

وتكمن الصعوبة فى تحديد دلالات الفصول فى انها تتصدر عناوين الاقسام مع ان السرد لا يعنى بعناصر الطبيعة ، ولا يذكر شيئاً من مظاهر الفصول ، مما يحيل الى شفرة رمزية تهيب بتحولات الوعى فى اكتشافاته داخل الواقع المهمش الذى يفضى الى قوى خطيرة لا تراها العين مباشرة . وتمضى تحولات الوعى فى القسم الأول فى حركة راسية تنتقل من عالم المخبز الى عالم المساكن ولكنها تخلو من مشاركة الذات فى حركة

الواقــع ـ هــذه الحــركة الراسية المتنقلة من عالم الى عالم ، وتتجاوز فيهــا العوالم فى بنيــة تجميعية مكانية ، تمــلأ القســم الثالث والرابع ايضــاً ـ لذا تتعادل هــذه الأقسام ، فيشمل كل من الأول والثالث على اربعــة فصول ، ويشمل الرابع على خمسة فصــول . أما القسم الثــانى فيقوم بحــركة أفقية تعرض مشاهد الحيــاة فى مساكن الايواء خــلال يوم واحــد عبــر ســتة عشر فصــلا تهيب فى عشرة منهــا بمعجــم الزمــان فى تحولات اليــوم من الفجــر ، الى البزوغ ، الى الضحى ، الى المغزالة ، الى المهاجرة ، الى الزوال ، الى العصــر ، الى الغسق ، الى العتمة .

هــذه الكثرة من الفصول تصــنع أمامنا الوعى غارقــاً فى تفاصيل الواقــع ، وهــو امــر لا افــلات منــه الا بالخروج الى العمـــل .

ولمــا كان الزمان ههنــا يؤسس النص ويحمــل اعمدته فى الوقت الذى لا يعنى فيــه الســرد بمظاهر الزمــان فى الطبيعة ، فــان النص يقــوم بتفريغ العلامة من دلالاتها العجمية المألوفة ، ثم يقــوم بتشغيرها مسقطاً عليهــا دلالات الوعى الذى يتعــرف على العــالم ، ويعجز ان يغــيره ، ويعجز عن الاستمرار مشاركاً فيــه ، أو الاستمرار فى تبــول تشوهاته .

٨ ــ وما يحدث مع الزمــان المعجمى يتفق مع استراتيجية النص كمحاولة لتحقيق انجــاز نحــوى واسلوبى ، يعيد توظيف ابنيــة اللغــة ، لخلق عــالم لغــوى واسلوبى ، يشى بتوترات وتمزقات الوعى الذى يفى تشوهات الواقــع ، ويرفضها ، ويعجز عن تغيرها ، ولا يملك الا أن يظــل واعيــاً ، بــل ان وعيــه ليزداد رهــافة وحــدة ورفضــاً .

مجدى أحمــد توفيق

الهـــوامش

(١) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ـ تح : د. محمد عبد المنعم خفـاجى ـ القاهـرة ـ مكتبة الكليات الأزهرية ـ ط ١ ـ ١٩٨٠ م ـ ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) عبد القاهـر الجرجانى : دلائل الاعجاز ـ تح. محمـود محمد شاكر ـ القاهـرة ـ الخانجى ـ ص ٨١ .

(٣) بسـط الدكتور شكرى عيـاد مفهوم الانحراف وشرحـه . انظـر لـه : اللغـة والابداع : مبـادىء عـلم الأسلوب العـربى ـ القاهـرة ـ مطبعـة انترناشيونال ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ ـ ص ص ٧٨ ـ ٩٠ .

(٤) د. لطفى عبد البديع : التركيب اللغوى للأدب ـ الرياض ـ دار المريخ ـ ١٩٨٩ م ـ ص ٢٣ .

(٥) د. صلاح فضـل : نظرية البنائية فى النقـد الأدبى ـ الأنجلو المصرية ـ ط ٢ ـ ١٩٨٠ م ـ ص ٤٢ .

(٦) د. صلاح فضـل : عـلم الأسلوب ـ بيروت ـ دار الآفاق الجديدة ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م ـ ص ١٠٢ .

(٧) H. G. Widdowson, Stylistics & The Teaching of Literature, London, Longman, 1979, P. 4.

(٨) Malcolm Coulthoard, An Introduction to Discourse Analysis, London, Longman, 1983, P. 170.

(٩) لأمـر واضح يوافق انهيـار البيت بدايات عصر الانفتـاح .

(١٠) أنظـر : ابن عقيـل : شرح الألفية ـ تح : محمد محيى الدين

عبد الحميد ـ بيروت ـ دار العلوم الحديثة ـ ٢/٤٤ .
وانظر : ابن هشام ـ اوضح المسالك ـ تح : عبد المتعال الصعيدى ـ القاهرة ـ مكتبة الآداب ـ ص ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(١١) ارسطو : فــن الشعر ـ ت. د. عبد الرحمن بدى ـ بيروت ـ دار الثقافة ـ ص ٣٢ .

(١٢) نفس الموضــع الســابق .

(١٣) د. محمد بــرادة : مقدمة ترجمته لباختين : الخطاب الروائى ـ القاهــرة ـ دار الفــكر ـ ١٩٨٧ م ـ ص ٩ .

(١٤) ابن عقيــل : شــرح الالفيــة ـ ١/٨٨ .

(١٥) Roland Barth. The Reality Effect, in, French Literary Theory Today, A Reader, edited by, Tzuetan Todorov, trans. by, R. Carter, Cambridge Univ, Press, 1982, P. 16,

(١٦) للتفرقة بين نظام الأحداث السببى الزمانى والتجميعى المكانى يراجــع : د. صلاح فضــل : نظرية البنائية ـ ص ص ٤١٧ ـ ٤٢١ .

(١٧) اســم أمــل يعتمد على شفرة ترميــز تجعلها امــلا للوعى الصادق ، لكن زواجهــا دون أن تقف مع يوسف فى محنته هــز مكانتها ، فــلم تبــد مقنعة حــين رفضت يوسف فى النهاية لأسباب أخلاقية . وربمــا كان هــذا دالــة عــلى اضطراب المعــايير الأخلاقية عمــوماً فى هــذا الزمــان .

(١٨) عــالم المخدرات مقــدم باختصار وليس فيــه عمق عــالم المخبــز أو عــالم المذبــح .

(١٩) ليس صحيحاً ان نجارة الارابيسك سقطت وانما تغير جمهورها فلم تعد شعبية واصبحت قاصرة على اثاث الاثرياء .

(٢٠) على الرغم من انه اباح نفسه للراقصة سنونة دون حرج .

الفهـــــرس

سلسلة
نصوص ٩٠

صدر من هذه السلسلة :

ـ ايام يوسف المنسى ـ رواية ـ السيد نجم ـ سبتمبر ١٩٩٠ .

العدد القادم :

ـ قبض الجمر ـ رواية ـ ربيع الصبروت .

الأعداد القادمة اعمال الأدباء :

ـ سعيد عبد الفتاح .
ـ سيد الوكيل .
ـ امين ريان .
ـ مصطفى الضبع .
ـ د. رمضان بسطاويسى .
ـ مجدى توفيق .

سلسلة
نصوص ٩٠ « سلسلة غير دورية »

المراسلات : ٢١ ش عوض فهمى ـ سراى القبة ـ القاهرة ـ السيد نجم ..

تعـــريف

المـؤلف : الســـيد نجـــم ..

صـــدر لـــه : ــ « السفر » مجموعة قصص قصيرة ١٩٨٣ .

ــ « أوراق مقـــاتل قديم » مجموعة قصص قصـــيرة ١٩٨٨ .

له تحت الطبع : ــ « لحظات فى زمن التيـــه » مجموعة قصص قصـــيرة .

ــ « المصيدة » مجموعة قصص قصيرة جدا .

ــ « السمان يهـــاجر شرقـــاً » ..
رواية « أدب أكتوبر »

رقم الإيداع
٧٦٠٩ / ١٩٩٠

* مطبعة زهران *
٤ شى حمام المصبغة ـ الأزهر